ست الحُسن

مجموعة قصصية

ولاء بسيوني

الدار
للنشر والتوزيع

2016

اسم العمل	ست الحسن
النوع	مجموعة قصصية
الكاتب	ولاء بسيوني
تصميم الغلاف	
إخراج داخلي	محمد علي إبراهيم
الطباعة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	محمد صلاح مراد
تليفون	01125800467
البريد الإلكتروني	eddar_press@yahoo.com
فيس بوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	٢٠١٦ / ٢١٧٦٥
الترقيم الدولي	I.S.B.N: 978-977-702-152-4

الاهداء

إلى كل من اضاءوا الدرب للعابرين

إلى كل من يمنح الآخرين دون مقابل إلا مثقال ذرة من حب

ولاء

ست الحسن

يتسلل خلسة مغافلاً أمه وباقي النسوة المجتمعات بصحن الدار، يمد يده إلى صينية العجين يأخذ قطعة في حجم كرة صغيرة ويفر هاربا قبل أن يضبط متلبسا بجريمته، يصعد إلى السطح يتحسس كرة العجين، يغرز أصابعه بها فتحفر علامات مكان أصابعه الصغيرة، بجذل شديد يكور أشكالا من العجين يصنع عروسا يشكل الرأس، ملامح الوجه، الأنف الصغير وغمازة الحسن في خدها تمامًا كوجه ابنة عمه سما، ثم يشكل ذراعيها ويسرح قليلا وهويفكر في جسدها اللدن كما رآه خلسة بالأمس حين كانت النسوة يقمن بتنظيف جسدها باستخدام تلك الحلاوة المطهوة على النار والتي عبقت رائحتها المنزل وأغرته بتذوق قطعة منها، لا يشعر بالوقت وهو مندمج في تشكيل العروس لتأخذ شكل سما.

يزدحم المنزل بالنسوة تلك الأيام عماته وبناتهن وزوجات أعمامه، كل منهن أتت لمهمة ما لا يعرفها أحد على وجه التحديد، هولا يعرف سوى أنه يحب سما، مذ وعى على الدنيا وهي تعيش بينهم، لا تعرف لها بيتا سوى هنا ولا يعرف هوسقفا ولا سماءا تتسع لفرحته سوى العيش جوارها

يقولون أنه عرس سما، وتزغرد النسوة فلا يدركه الفرح لصغر سنه، لكنهن لما اجتمعن للغناء والرقص في باحة الدار في المساءات السابقة ودارت أكواب الشربات وسمحت له أمه باللعب خارج الدار حتى وقت متأخر أدركه الفرح، لكن سما انشغلت عنه اليومين الماضيين لم تعد تصعد معه على سطح الدار كعادتها كل مساء.

كانت تشاركه التطلع للسماء ويقص لها عن الجنية التي تطارده والتي تسكن إحدى النجمات وكانت تهدهده وتحكي له قصة الشاطر حسن، وتضمه إلى صدرها فيتخيلها ست الحسن، يسحره صوتها الناعم وشعرها الذهبي الطويل، تلك

الجميلة ذات العينين العسليتين والبشرة الخمرية والوجه المضئ، من سواها تصلح أن تكون ست الحسن؟

ويسألها: هل أشبه الشاطر حسن؟، وترد: إنت أجمل من الشاطر حسن، فيسألها بعصبية أكثر: هل يشبهني الشاطر حسن؟ ولا يهدأ حتى تمسك ذقنه، تتأمله برهة قبل أن تؤكد له أنه يشبه تماما الشاطر حسن، فيبتسم في سعادة.

أنهت النسوة صنع الكعك وقمن برش السكر فوقه وأصبح شكله مغريا جدا كي يتذوقه؛ لكن النسوة كن يصنعن جدارا عازلا بينه وبين الفرحة، لن يتذوق أحد من الكعك إلا يوم العرس، ولكنه توسل لأمه التي رقت له وأعطته خلسة إحدى الكعكات دون باقي أطفال المنزل وانفرد بها فوق السطح وأكلها وهويراقب السماء وحده، وبدت السماء موحشة بلا نجوم ولا جنيات. كان صوت النسوة يصل إلى أذنيه بأغنياتهن مع إيقاع الطبلة "مين يشتري مني جوز الحمام مني، مين يشتريك يا حمام منِّي"، كان الغناء مصحوبا بالتصفيق ورقص الفتيات الذي كان زاهدا في الفرجة عليه، راقب السماء وهو يفكر لماذا

تغيرت سما؟ لم تعد تصعد معه إلى السطح، وعزفت عن مشاركته ألعابه الصغيرة، كانت العروس التي شكلها من العجين لا تزال قابعة إلى جواره، كيانا هشا لا يستطيع الإمساك به، فاكتفى بأن قص عليها حكاية الحورية التي تطارده والتي تسكن إحدى النجمات، وقص عليها قصة الشاطر حسن وست الحسن، ولما لم تعقب نظر إليها قليلا، ثم أخبرها أنها تشبه تماما ست الحسن.

حصار عاطفي

"وهأنذا أقفز من سفينتك وآوي إلى جبل يعصمني وأكفر بك فأنجو، يغسلني الماء يعمدني، تحل روحي في حواء أخرى تقع في شراكك ثانية ويلتف حبل الغواية حولنا، نتجادل بشأن من منَّا في البدء قضم الفاكهة المحرمة بينما تزل أقدامنا في الشراك"

***

للمرة الأولى منذ سنوات أحظى بهذا النوم العميق، نهضتُ من فراشي وأنا أشعُرُ بالراحة، فتحتُ النوافذ ليتسللَ هواءُ الصباحِ وقمتُ إلى المطبخ لأعدَ كوباً من النسكافيه، فتحت الحاسوب لأقرأَ الأخبار على شبكة الإنترنت، شعرت بأنني أتعرف على العالم للمرة الأولى، أتذوق طعما جديداً للأشياء. عرفتُ إحساس السجين لحظة خروجه للحرية، وبينما أنا

مستغرقةً في هذا الشعور تماماً دقَّ جرس الهاتف بجواري، كان هو المتصل، ترددت لحظة عاودني فيها خوفي القديم، لكنى وبعد ثوانٍ من التفكير قررتُ الرد:

- أنا عارف ان الكلام دا متأخر أوي بس أنا حبيت اقوله، أنا معترف إني غلطت في حقك وظلمتك كتير بس أنا عاوزك تسامحيني

- هوا كلام متأخر فعلا ومش هيغير أي حاجه، خلاص كل شئ انتهى.

- أنا لحد دلوقت مش قادر استوعب اللي حصل، يمكن لأن فيه حاجات مش بنعرف قيمتها غير لما تضيع مننا

- من فضلك، أنا مش عاوزه اتكلم في أي حاجة.

شعرت بأني أراه وهو ينفث دخان سيجاره الفاخر بينما يقول:

- أنا عارف انك بتحبيني ومش هتقدري تعيشي من غيري.

ضحت ضحكة قصيرة ساخرة:

- كل شئ له نهاية حتى الحب ممكن ينتهي، يموت زي ما كل حاجه حلوة بتموت

- حبنا لسه عايش يمكن بس محتاج فترة نقاهة ويرجع أقوى من الأول

- اللي اتكسر بيننا ما فيش حاجه ممكن تصلَّحه إنت شخص سادي ومريض وعمرك ما هتتغير.

كنتُ قد توتَّرتُ كثيراً فأنهيت المكالمة وأنا ألعن غروره وفلسفته الكاذبة التي سحرتني في بداية معرفتي به، الآن بتُّ أكرهها وأكرهه.

قلّبت في ذاكرة هاتفي المحمول حتى وجدت تلك الصور التى أحفظها في ملف خاص، صور الكدمات التي كانت تحدث لي عقب كل خلاف بيننا ينهيه بأن يعتدي عليَّ بالضرب، كنت أتعمد أن ألتقط الصور حتى أذكّر نفسي بها وتساعدني أن أتخذ قرار الإنفصال الذي تأخر كثيراً.

قررت الهروب من حالة الاكتئاب التي سيطرت علي عقب تلك المكالمة السخيفة.

اتصلت بإحدى صديقاتي وبعد دقائق قليلة كنا نجلس في الكافيه المفضل لنا، سألتني عن أحوالي بعد الطلاق، فحكيت لها عن مكالمته بإيجاز شديد ولاحظت هي توتري فغيرت مجرى الحديث وأخذت تتطرق إلى أمور التسوق والأفلام وأشياء كثيرة مرحة. قدرت لها موقفها كثيرا.

قطع حديثنا رنين الهاتف، كانت أمي المتصله، تبلغني عن رغبته في أن يردني إلى عصمته. قالت كلاما كثيرا عن كوني أنا المطلقة الوحيدة. تكلمت عن صدمة عائلة تعتبر الطلاق عيبا مشينا للمرأة سيظل ملتصقا بها، لما وجدتني لا أكاد أرد على كلامها، طلبت مني الذهاب إليها للتحدث في الأمر.

كنت اعرف أنها ستعد لي اجتماعا عائليا لمحاصرتي والضغط علي، فلم يكن مني إلا أن تحججت –كاذبة– بالسفر خارج القاهرة لقضاء مأمورية تخص العمل وعلى وعد مني بزيارتهم فور العودة. أدركته وردت عليه بوعد غير منطوق منها أنها لن تتركني لحالي.

تركت صديقتي، ومضيت أتمشى بلا وجهة، أفكر في مكالمة أمي. لا أعرف كيف استطاع أن يؤثر عليهم جميعا لهذه الدرجة، مستغلا عدم علمهم بتفاصيل خلافاتنا، التي أخفيتها حفظا لكرامتي، ومنعا لشفقة هي آخر ما احتاجه في عيون أحدهم، ربما ليس كذلك، وربما لكي أعذرهم أنهم لا يعرفون حين يحاربون قراري. عدت بذاكرتي إلى سنوات ثلاث مضت، لم يكونوا متحمسين له هكذا حين تقدم إليهم يخطبني، لأن أموره المادية لم تكن قد تحسنت على هذا النحو. كانت ضغوطهم تزداد يوماً تلو الآخر؛ مكالمات أمي، وإخوتي اللواتي استعانت بهن للتأثير عليّ؛ إنتهت الإجازة سريعا وعدت إلى العمل وأنا أستعين به على الصمود في حياتي التي خططت لها، لأفاجأ بباقة زهور تصلني منه في مكان عملي صباحاً ورسائل عاطفية على هاتفي المحمول في المساء. تكرر الأمر في الأيام التالية. تحاصرني زهوره في الصباح وكلماته العاطفية في المساء. كنت أشعر باللامبالاة حيال هذا الحصار ثم بدأ يذكرني بأيام حبنا الأولى، شعرت بأنوثتي تتحرك، وجدت نفسي أنتظر رسالة المساء بلهفة وإن لم أرد

عليها، وأذهب إلى عملي في الصباح وأنا أخمن شكل باقة الزهور لهذا اليوم. أرى نظرات الحسد في عيون زميلاتي، فأستمتع بها. صرتُ أكثر حيوية وتألقا. كان التيار يجرفني بشدة أكبر من أن أقاومه: إلحاح أمي، كلمات إخوتي، باقات الزهور، رسائلهُ الناعمة تعزف على أوتار حب قديم

وجدت نفسي مرةً ثانيةً أجلس إلى المأذون، وسمعتني أقولها : "زَوَّجْتُك نفسي"

ودخلت بقدمي ثانية نفس السجن يحرسه نفس السجان، ولكن هذه المرة مصحوبةً بمباركة الأهل، وعشنا أياماً قصيرةً في سعادة كادت تنسيني ما قد مضى، وانتهت أيام العسل المعدودة، وبدأت الخلافات تعود وبدأت عصبيتُه وحدّتُه في الظهور من جديد.

عدت أمسك هاتفي المحمول، وأفتح ملفا جديدا يجاور القديم الذي –عجبًا– لم أحذفه، ثم ألتقط صورة للكدمة في ساقي، قبل أن أحكم ارتداء ملابسي الضافية وأختار نظارتي الشمسية الكبيرة لتخفي الكدمة أسفل عيني قبل أن أخرج من المنزل.

حديث الجسد

"إلى طيفك الذي يراودني عن نفسي كل مساء ويخلد للنوم قديسا: إني أقرأ سورة مريم كل مساء، فارحل عني"

***

في الأتوبيس، أحشر جسدي وأقف بجوار أحد الكراسي أتمسك جيدا بمسنده كي لا أقع مع الاهتزاز والمطبات والمنحنيات المفاجئة. أشعر بأحدهم يحتك بجسدي من جهة اليسار، أتحرك إلى اليمين قليلا فأكاد أصطدم بآخر.

أظل ثابتة في مكاني، بينما يستغل ذاك الواقف على يساري الاهتزاز والمطبات محاولا استباحة جسدي. أتشبث بمكاني كالمسمار، محاولة الحفاظ على وجودي في المسافة بين الرجلين.

جاء المهندس ليشرح لنا البرنامج الجديد. جلس في مواجهتي، تصطدم ركبتاه بركبتيّ كثيرا أثناء الشرح، أكاد أعترض، في اللحظة التي يطلب مني الجلوس مكانه وتجربة البرنامج.

يمد ذراعه ليكتب شيئا ماعلى لوحة المفاتيح، فيحتك ذراعه بنهدي. أتراجع للخلف فى انزعاج، لأجده مسندا ذراعيه على ظهر الكرسي ليحاصرني بإحكام.

في إرهاق شديد أذهب لآتي بطفلي من الحضانة، أعد له وجبة سريعة قبل أن أبدأ في تحضير الغداء، يأتي زوجي ونتناول غداءاً صامتا، أرفع الأطباق وأقوم ببعض الأعمال المنزلية، قبل أن أخلد للفراش.

أشعر بأسراب من النمل تقتحم جسدي، أكاد أغفو، حين أحس بيد تمتد في الظلام لتتحسس جسدي.

رائحة التفاح

كنت أراقب حركة يديه وهويقطع اللحم ليضعه على الميزان، اعترضت على كمية الدهن الكثيرة في القطعة فردّ بحدة وهويلوح بالساطور: "دي حته ملبسة يا مدام".

ابتلعت اعتراضي ودفعت المبلغ المطلوب في صمت. حسبت ما معي من نقود بعد شراء اللحم آملة في أن يكفي ما تبقى من المال لشراء الخضر والأرز. أنا لا أشتهي اللحم، والدجاج أرخص كثيرا، لكن زوجي أصر أن تأكل أمه اليوم لحمًا، فهو لا يدعوها على الغداء كل يوم؛ مشيت إلى السوق وأنا أسمع صوت طفلي الصغير يرن في أذنيّ: "هاتيلي معاكي تفاح"

لن تكفي النقود لشراء التفاح، تخيلت خيبة الأمل على وجه طفلي، لكن لم يسمح الوقت أن أحزن لأجله، فقد وصلت إلى السوق. قررت شراء ما يلزم لطهو وجبة الغداء ثم التفكير في

الأمر. اشتريت الخضر وبعض أرغفة الخبز الطازج، وكيلو من الأرز السائب، وأنا أتوقف كل حين لأحسب ما تبقى معي.

مررت بباعة الفاكهة في طريقي للخروج من السوق، إلا أني تجاوزتهم جميعاً، واتجهت إلى أحد أكشاك الحلوى التي تصطف على الرصيف المواجه. اشتريت علبة صغيرة من عصير التفاح الرخيص.

حين فتحت باب المنزل، جرى طفلي إليّ وفي عينيه مزيج من الفرح الطفولي والترقب. أعطيته علبة العصير، فتناولها بسعادة غامرة، وارتسمت على وجهه أمارات الفرح!

القربان

مبكرا كعادته، يمارس طقوس الانحناء/ الركوع لأشخاص بصقوا في وجه قناعاته القديمة لأنهم اختلفوا معه. ملَّ من سماع صوته وهو يتحدث عن هراء الاختلاف فى الرأي. ولما يئس منهم، قرر أن يدفن كل قناعاته ويتخلص منها، تماما كما يتخلص قاتل من الجثة خوفا من الادانه وهربا من رائحة العفن. دفنها، وسار في ركابهم.. إلا أنه صار يخشى السير فى طريق الجبانات ليلا، لأنه لم يكن متأكدا من موت قتيله تماما. ظل يساوره الاحساس بأنه ما زال حيا، يناديه في المنام ويخبره أن مكانه معه هناك، يسأله: لماذا تخليت عنى؟ ألم نكن رفقاء درب؟ لماذا تخرج الأشياء عن مداراتها؟

يرد: كان لا بد لأحدنا أن يصبح قربانا، حتى يتسنى للباقين أن يعيشوا في سلام

- وهل أمنت مكرهم؟ ألا تدرك أن الأرض كروية وأن كل الكواكب تدور في مدارات واحدة منذ بداية الخلق، مرورا بنفس النقطة فى كل مرة في نفس الوقت من العام؟ دورة واحدة أخرى وتصبح أنت قربانهم ليتقربوا لمن هم أقوى منك. لم يقبلوك واحدا منهم إلا لتكون جواز مرورهم للضفة الأخرى. سيعبرون على جسدك، وبعد وصولهم سيقيمون احتفالا ويلقون بك فى النهر.

يصحو من نومه فزعا، يتمتم بالمعوذتين وآية الكرسي، يتشبث بقناعاته الجديدة، يتحسس لحيته التي استطالت لتصل إلى صدره، ويشعر بالرضا عن نفسه بعض الشئ، فيستعيد هدوءه الـ... واثق!

لم يتخل تماما عن قناعاته، فها هي – رغم كل شئ – لحيته التى اكتسبت الكثير من مشروعيتها. صار يمشي بها آمنا، لا يخشى أن يستوقفه أحدهم بسببها، أو أن يمنع من دخول المنشآت العسكريه، بل صار مرحبا به بينهم، كان لا بد له من قربان،" لكي نعيش في سلام يجب علينا تقديم بعض التنازلات.

"هكذا سولت له نفسه، تخلى أيضا عن تشبثه بالكثير من الآراء الدينيه التي تبدو لهم متزمتة، بدا أكثر تفتحا في برامج التلفاز التي يبدو متألقا بها مع أسئلة المواطنين، يتجنب الخوض في الأمور الشائكة، يتوخى الحذر فى الكثير من الأمور غير الشائكة. معياره فى النطق بالفتوى هو–كما يقنع نفسه– سلام البسطاء. وسلام البسطاء لا يكون إلا برضا الكبار، الذي يستنبطه من رائحة الهواء الذي يحمل الذبذبات الكهربية للغضب والتوتر حين يكون عليه أن يفتى في أحد الأمور المتعلقه بالبنوك، القروض، وحكم مشاهدة الأفلام والمسلسلات. يعرف أنهم يزنون كلامه بميزان حساس، فيحسب كل كلمة تخرج من فمه قبل أن ينطقها، ويسير آمنا مطمئنا.

لكنها تعاوده ثانية فى الليل، تهزأ به، تبتسم ابتسامة صفراء تكشف عن أسنان نخرها السوس فأفسد شكلها. لم تكن هكذا من قبل – فكر في نفسه – وهوينظر لهذه الابتسامة الصفراء الكريهة. كل شئ يسير على ما يرام، هكذا أخبر نفسه حين استيقظ ووجد كل شئ على حاله، باستثناء بعض المهاجمين له من كارهي اللحى. إلا أنه قرر أن يتغاضى، وأن يظهر

مزيدا من التسامح. لن يتخلوا عنه بسبب هؤلاء.. هو جزء من ديكور المشهد، هكذا حدثته قناعاته الجديدة. هو جواز مرورهم نحو الديموقراطية، ولحيته هى الدليل المادي الوحيد على تحضرهم وسعة صدورهم وقبولهم الاختلاف فى الرأى؛ رغم أنه لم يكن مستعدا ليختلف معهم. كان يرتاح إلى فكرة أنهم مثله، لا أحد أفضل، فكلهم يتبعون نفس المايسترو، يعزفون نفس المقطوعة الموسيقية بحماس مدروس، لا مجال هنا لأى نغمة تخرج عن السياق.

في خطبة الجمعة، امتلأ المسجد بالمصلين. وقف ليخطب بهم، فسأله أحد الحاضرين سؤالا مفخخاً عن حرمة السكوت عن إهدار دم المسلم. التقط أنفه الذبذبات الكهربية في الجو

- لا حديث في السياسة

تعالت الأصوات تهتف ضده وأصوات تهتف ضد صاحب السؤال، استغل الهرج الحاصل ليمتنع عن الرد. ليس بعد كل ما حققه. لقد صار قاب قوسين أو أدنى من رجال البلاط. علا صوته أكثر مستخدما مكبر الصوت: ليس المسجد بالمكان

المناسب لمناقشة الأمور السياسية، من جاء ليصلي فليصل ومن جاء لإثارة الهرج فليرحل، أقم الصلاة.

بعد أن انتهى اليوم، ظل يستعيد ما جرى أكثر من مرة. حمد الله على أن الموقف مر بسلام، فتح التلفاز على نشرة الأخبار، التى كانت تعلن التشكيل الوزارى الجديد. شعر بموجة من التفاؤل تجتاحه وهويستمع إلى الأسماء. بقى القليل ويحين موعد الانتخابات البرلمانيه، وهو أبرز مرشحي الحزب الإسلامي الوحيد على الساحه الآن. فقط مسألة وقت، ثم سيصبح من ذوى السلطه، ووقتها سيصبح من القوة بما يكفي لنشر قناعاته الخاصة رويدا رويدا. الآخرون أغبياء، لم يستوعبوا أن الناس لم يكونوا مؤهلين ليتجرعوا الشراب على دفعة واحدة.. فرضوا وجودهم فى كل المناصب القيادية، وحقنوا الشارع بالغضب. لم يكترثوا للشارع، رغم أن الشارع هو من أطاح بمن قبلهم وهو أيضا من أتى بهم لسدة الحكم. يثق في مقدرته على السير على كل الحبال، يتعامل مع حملات الهجوم عليه على حسب المهاجم، فالخصم القوى يواجهه بطاقته على التسامح والتجاوز عن الأخطاء، بينما يشن كل

هجومه ويستخدم أسلحته ضد خصومه الضعفاء من الأحزاب والجماعات الإسلامية التى لم يعد لها مكان على الساحه. ينظر في المرآة، يبتسم، ثم يحيي نفسه على ذكاء قدرته على البقاء. في صباح ما، يقرأ في الأخبار قرارا بمنع شيوخ فرقته بكاملها من الخطابة، إصدار قوانين صارمة للخطابة فى المساجد، شروط لا تتوافر فيه ولا في كل مشايخه!.. ما الذي يجري؟

هل انتهى الحفل وألقوا بهم فى النهر على حين غفلة منهم؟

هل كان مغيبا كل هذه المدة؟

يشعر بالماء يغمر جسده ويهوى إلى الأسفل.

في ارتطامه بالقاع يبصر تلك الجثة صاحبة الابتسامة الصفراء ، يصك أذنيه كي لا يسمع جملة: ألم أقل لك؟

هزيمة

" –ألف مبروك يا عيشه،عقبال ما تفرحي بيه "

قالها الأستاذ سعد وهويشرب كوب الشربات على دفعة واحدة

" – الله يبارك فيك يا أستاذ سعد

ردت عائشه بسعاده وهى توزع أكواب الشربات على الموظفين فى المصلحة، وانهالت عليها عبارات التهنئة من الجميع: ألف مبروك يا عيشه، ترد عليهم الله يبارك فيكو يا جماعه عقبال اولادكم ان شاء الله

تتجه إلى رئيس القسم الأستاذ مدبولي، وتضع كوب الشربات على المكتب قائلة: حلاوة نجاح طه ابني اتخرج من كلية التجارة وهيبقى محاسب قد الدنيا.

–ما شاء الله ألف مبروك، عقبال ما تفرحي بأولاده.

–مش لما يتوظف الأول يا استاذ مدبولي.

–ان شاء الله، كله بأمر ربنا وبتوصية المدير العام

يقولها وهويخفض صوته ويشير إلى مكتب المدير العام فى نهاية الممر، فتقول عائشة برجاء:

–طيب ما تكلمهولي يا أستاذ مدبولي ينوبك ثواب

–انتى دخليله الشربات وكلميه وانا هابقى أوصيه على طه.

–شكرا يا أستاذ مدبولي ربنا يخليك.

–على إيه يا عيشه كلهم أولادنا، ربنا يوفقه إن شاء الله.

يبدأ الموظفون فى الانصراف إلى أعمالهم، وتقوم عائشة بجمع أكواب الشربات الفارغة من المكاتب وتذهب لغسلها، ثم تتجه إلى غرفة المدير العام قبل وصوله بنصف ساعة وتبدأ بتلميع المكتب والنافذة والأنتريه الجلد وصورة الرئيس المعلقة خلف المكتب مباشرة، ثم تقوم بمسح الأرضية، وأخيرا ترش معطر الجو، وتخرج وتغلق الباب من خلفها وتذهب لتجلس مكانها فى الأوفيس وهي تنتظر قدوم المدير على أحر من الجمر. تنتبه على صوت عم سعيد الساعي وهويقول: إيه يا عيشة،

اللي واخد عقلك؟ فترد: أبدا يا عم سعيد بس بافكر فى طه، نفسي ربنا يكرمه ويشتغل معانا هنا فى المصلحه.

يرد عم سعيد وهو يملأ الغلاية بالماء استعدادا لعمل الشاي للموظفين: وليه لأ يا ام طه انتى مش بتقولي ان معاه بكالوريوس تجارة؟، يعنى ممكن يشتغل فى الحسابات.

–ياريت يا عم سعيد. نفسي اشوفه موظف قد الدنيا وقاعد على مكتب،ساعتها يبقى ربنا عوض صبري خير أنا وابوه ثم تصمت لحظة مفكرة وتقول: بس تفتكر مصطفى بيه يوافق؟

–وليه ما يوافقش ما هو لسه معين 4 من ابناء الموظفين السنه اللي فاتت واللي قبلها نفس الكلام برضه، وبعدين انتى بقالك عشرين سنه شغاله هنا فى المصلحة.

تتنهد عائشه قائلة: يا رب يوافق.

يصب عم سعيد الشاي فى الأكواب وهويقول: إن شاء الله، سلمي أمرك لله وما تفكريش.

وتفسح له عائشة ليخرج حاملا صينية الشاي، وترى من مكانها مصطفى بك المدير العام قادما فتقف على باب الأوفيس المطل على الممر فتصيح قائلة: صباح الخير يا مصطفى بيه

– صباح الخير يا عيشه

ويتجه إلى المكتب ويغلق الباب من خلفه، ويذهب أحد السعاة فى إثره حاملا إليه البريد، وتعد عائشه كوبا من الشربات وتطرق باب المكتب وتدخل وتضع الكوب على المكتب بينما مصطفى بك مستغرق فى قراءة البريد اليومي فلا يلتفت إليها، تظل واقفة فى صمت حتى يرفع رأسه اليها فيرى كوب الشربات، تبادره قائلة:دا شربات نجاح طه،خد بكالريوس التجاره وجاب جيد.

يبتسم المدير فى عطف ويخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة يناولها إياها وهويقول: ألف مبروك يا عيشه ربنا يباركلك فيه.

تأخذ عائشة النقود على استحياء لتضعها فى جيب اليونيفورم وهى تغمغم بعبارات الشكر والدعاء، ثم تتنحنح قائلة: كنت عاوزه من سعادتك خدمه يا مصطفى بيه

فينظر إليها قائلا: خير يا عيشه فيه إيه؟
– كنت باقول يعنى لوأمكن ان سعادتك تشغله معانا هنا فى المصلحه.....
صمت مصطفى بك لبرهة مفكرا ثم قال: والله انت بنت حلال يا عيشه، تعرفي احنا كنا لسه هنعمل اعلان قريب عشان محتاجين سعاه وعمال نظافه، خليه يقدم ورقه وأنا هاوصي عليه، ألف مبروك يا ستي

انصرف إلى أوراقه، فلم يلحظ امتقاع وجهها، ولا مشيتها المتثاقله وهى تجرجر ساقيها نحوالباب. خرج صوتها متحشرجا وهي تقول: الله يبارك فيك يا سعادة البيه عقبال ولادك.

جموح

جلست على ركبتيها بين ساقي أمها، التي كانت تمرر المشط بصعوبة بين خصلات شعرها الغجري محاولة كبح جماحه وتضفيره بتلك الشرائط البيضاء. تململت الصغيرة بضجر وهي تقول:

- يعني لازم كل يوم تعملي شعري ضفيرتين وتربطيهم بالشرايط البيضا "

الأم بحسم من لا يقبل المناقشة: الضفيرتين عشان شعرك بيهيش والشرايط البيضا عشان انتي رايحه المدرسة وممنوع الألوان.

سرحت الأم بخيالها بعيدا؛ تراها شابة جميلة يحوم حولها الذئاب، فتتعوذ من الشيطان الرجيم وتشد الشريط الأبيض بإحكام حول الشعر الغجري الذي يحاول التمرد.

اعترضت الصغيرة: بس انا كل اصحابي بيسيبوا شعرهم وبيحطوا توك ملونه والمس مش بتزعق وماحدش بيقول حاجه.

مشطت الجهة الأخرى من الشعر والطفلة ترجع برأسها للوراء محاولة التحرر من ألم شد المشط لشعرها بقوة.

فتثبت الأم رأسها بلطف قبل أن تعاود شد شعرها مرة أخرى مع حركة المشط قائلة بحزم:

- مش لازم نستنى حد يزعق علشان نلتزم إحنا لازم نتصرف صح من نفسنا

- بس كل البنات بيتريقوا عليا وعلى الضفيرتين، وأصلا مافيش ولا بنت في المدرسه بتعمل شعرها ضفاير غيري

كانت الأم قد أنهت مهمتها، فأدارت وجه الطفلة إليها وأزاحت خصلة متمردة من على جبهتها وأخفتها خلف أذنها وهي تنظر لوجهها الطفولي الغاضب قائلة:

- عشان انتي بنت ملتزمة ومؤدبة وأحسن من كل البنات

ردت البنت بإصرار: بس أنا مش عاوزه اكون أحسن منهم أنا عاوزه أكون زي كل البنات، قالتها وجرت غاضبة إلى حجرتها، وقفت أمام المرآة، نزعت الشرائط البيضاء وحلت ضفائرها، ليسافر شعرها الغجري سابحا في فضاء الغرفة.

كان سائق الباص قد أزعج الشارع بكامله بآلة التنبيه، فسحبتها الأم غاضبة، ونزلتا إليه، نظرت الصغيرة إلى الزرقة التي نبتت مكان قرصة أمها لذراعها، هزت رأسها وشعرها يطير مع الهواء القادم من الشباك الذي ترى منه أمها لم تزل واقفة مكانها، وابتسمت في غبطة وتحدٍ.

حرية

حين أشرقت الشمس على المدينة، ربتت على وجه الشجر، حضنت الشوارع التي بدت كأم ثكلى جفت الدموع في مآقيها. كل شئ كان غارقا فى الصمت، شظايا على الأرض، ورائحة الغاز والبارود، لم تغادر المكان مكشوفة الشعر، والإزار بلا أزرار تقبض على ضفتيه، جلست تنعي أبنائها المقاتلين.

بدأ الناس ينسلون من بيوتهم واحدا وراء الآخر. يسيرون فرادى، مطأطئي الرؤوس، كل فى ملكوته الخاص، غير عابئ بما حوله، وكأنما بينهم ميثاق غير معلن، لا يجرؤون على كسر الصمت. وقفت الأشجار تتأمل في صمت حذر، تستجيب الأغصان بتثاقل لمداعبات النسيم المحمل بروائح الدخان والبارود. تلوح في الأفق أسراب الطيور، كل جماعة منها تتناغم في عذوبة كأنها طائر واحد كبير. بدأت الطيور تتخذ أماكنها على فروع الأشجار، مغردة بأصواتها المحرضة.

الأصوات تعلووتزداد حدة مع كثرة عدد الطيور، تصل إلى مسامع قائد الحرس، الذي لم يرق له الأمر.

هذا الضجيج يكسر حاجز الصمت الذي فرضه على المدينة، يصدر أمره باعتقال الطيور التي لم تخف. وجئ بالمصايد والقناصة، فقتلوا من قتلوا واعتقلوا من اعتقلوا، إلا أن عددهم ظل في ازدياد مستمر!

دعا الى اجتماع موسع، تشاور مع قادته، وبعد البحث والمشاورات، توصلوا الى أن الأشجار هي المسئولة عما يحدث، فوجودها يغري المزيد من الطيور بالمجئ.

لا بد من اعتقال الأشجار!

أرسلوا الأشجار الى المعتقل، فقابلتها بالترحاب الطيور التى سبقتها؛ أصبحت مساحة المعتقل غير كافية، فقاموا بتوسيع المعتقل ليستوعب الوافدين الذين يزيدون مع مطلع كل شمس، صارت أسوار المعتقل تمتد أكثر فأكثر حتى شملت المدينة بأكملها. وأصبحت المدينة معتقلا لا يسع إلا شعب المدينة، لم يعد هناك مكان للقادة ولا لحراسهم.

السكان الجدد

صحوت من نومي على ضوضاء شديده تأتى من السقف. نعم من السقف. كانت الأصوات لأطفال يجرون محدثين ضوضاء عالية جدا، وأصوات لزحزحة قطع الأثاث. حاولت تجاهل الأمر ومواصلة النوم، لكنى لم أستطع؛ خاصة مع ازدياد علوالصوت، أوهكذا بدا لي، لأنى كنت مستفزةً جدًا مما يحدث. نظرت فى المنبه، الساعه قد تعدت الواحده صباحا.اعتدلتُ جالسة فى فراشي وأنا أشعر بالضيق، وأيقظت زوجي الذى لم تكن لتوقظه ضوضاء انفجار قنبله ذرية

أحمد.. أحمد

دعك عينيه منزعجا: إيه فيه إيه؟

–قوم شوف الدوشه اللي احنا فيها دى

–دوشة إيه بس...هى الساعه كام دلوقت؟

–الساعه واحده الصبح

–حد يصحي حد ف وقت زى دا برضه؟

–الله يعنى انت مش سامع؟

اعتدل فى الفراش وصمت برهة ليفيق ويستوعب ما يجري، ثم قال باستنكار:

–دى إيه الدوشه دى صحيح هى الناس دى ما بتنامش؟

–أنا باقول تطلعلهم وتتكلم معاهم كده بالراحه، تقوللهم ما ينفعش كده

–يعنى عايزانى فى أول يوم لينا فى العماره أتخانق مع الجيران؟ بقى دا اسمه كلام؟

عاد يتمدد فى الفراش ويغمض عينيه ويحكم الغطاء حول جسده قائلا: بكره نبقى نشوف الحكايه دى، وحياتك يا منى سيبينى انام عشان هاصحى بكره الساعه ستة.

نام في لحظة، وتركني أحسده لساعات مليئة بمحاولات مضنية للنوم، ومعاناة طويله من الأرق، قبل أن أستطيع أن أحظى بقليل من النوم قبل طلوع النهار.

أعددت الإفطار، وأيقظته. جلس إلى المائده ممسكًا بالتابلت يتصفح عناوين الجرائد، بينما لا أفتح أى مواضيع، لأنى أعرف أن مزاجه لا يكون رائقا فى هذا الوقت. ارتدى ملابسه ونزل للذهاب لعمله، وانهمكت أنا فى أعمال التنظيف وترتيب المنزل حتى الساعه الحادية عشرة، موعد وصول أم إبراهيم زوج البواب لأعطيها قائمة بمشتروات الغذاء أنا وغيرى من السكان. كان هذا هو النظام المتبع، والذي أخبرتنا به بالأمس حين وصلنا، بينما كانت تساعدنا هى وزوجها فى حمل الحقائب الكثيره. رن جرس الباب، وفتحت لأعطي أم إبراهيم قائمة المشتروات والنقود. كدت أن أسألها عن الجيران بالدور الأعلى؛ ولكننى أحجمت. ليست بداية طيبة أن تبدأ حياتك الجديده بالشكوى من الجيران. لن يعطي ذلك انطباعا جيدًا على أية حال. قضيت باقي اليوم في الطهو، بينما أتابع الضوضاء من الدور العلوى. إنها عائلة نشطة على ما يبدو.

من الواضح أن السيدة تقوم بأعمال التنظيف الآن، فأنا أسمع بوضوح صوت زحزحة الكراسي والأثاث الثقيل ووقع الأقدام التي تروح وتجئ بلا كلل. لم تضايقنى الأصوات كثيرا أثناء النهار، ومر اليوم بسلام. وحين عاد زوجي، تناولنا الغذاء وجلسنا نشاهد التلفاز وكان كل شئ يسير على ما يرام. وعند منتصف الليل وبعد أن نمنا أخيرا، صحوت فزعة على نفس ضوضاء الأمس! ياللفظاعة؛ مرة ثانيه! ألا ينامون؟

نظرت إلى زوجي الغارق في سبات عميق وشعرت بالغيظ؛ ألا تزعجه تلك الضوضاء؟، أشفقت عليه من أن أوقظه لأشكو له، فقد عاد متأخرا من عمله هذا المساء. خرجت الى الصالة لأشاهد التلفاز، وبقيت ساهرة حتى صليت الفجر، ووجدت أن الأصوات قد هدأت قليلا. قلت لنفسي أنني–على ما يبدو– سأغير روتين يومي طبقا لمواعيد نومهم.

لم أدر متى خلدت للنوم، فقد صحوت على صوت جرس الباب. قمت لأجد أشعة الشمس تدخل عبر فتحات الشيش، لتعلن بقوه قرب انتصاف النهار. فتحت لأم إبراهيم وأخبرتها

بالطلبات التى أحتاجها بسرعة، وذهبت لأغسل وجهى. كان زوجي قد استيقظ وذهب للعمل دون أن يوقظني، فشكرت له كرمه. صنعت لنفسي كوبا من النسكافيه عله يسكت هذا الصداع، وجلست أفكر فى ضوضاء الليلتين الماضيتين. مر الوقت، حتى رن جرس الباب وفتحت لأم إبراهيم التي أحضرت الطلبات

-شكرا يا أم إبراهيم

-العفو تأمرى بأى حاجة؟

-آه باقولك ايه يا ام ابراهيم، هوا مين الناس اللي ساكنين فوقينا؟

-؟!!!!

- بصي أنا كنت عاوزاكي بس تطلعي للجيران اللي فوق وتقوليلهم إننا ما بنعرفش ننام من الدوشه دى، طول الليل امبارح خبط ورزع ودق، وبعدين الليلة اللي قبلها العيال ولادهم قاعدين يجروا طول الليل رايحين جايين لحد الفجر، أنا ما عرفتش انام خالص امبارح ولا أول ودماغي هتنفجر من

الصداع.

كنت أتحدث بسرعة وانفعال، بينما أم ابراهيم صامتة تماما، تنظر إليّ كمن يستمع إلى أمر جلل. وحين انتهيت من حديثي،ظلت هي على صمتها تماما، تنظر إلى فى خوف شديد، وقد انكمشت فى نفسها

-إذا كنتى خايفه أومحرجه يا ام ابراهيم خليكى وانا هاطلعلهم بنفسي

-لا أبدا بس أصل.

-أصل إيه؟... إنتى مش عاوزه تتدخلى يعنى؟ أوخايفه منهم؟

ردت بصوت مخنوق في حلقها:

-لا.. بس أصل.. الشقه اللي فوقيكي أصلا مش ساكنه.

قلت وأنا أحاول أن أستوعب ما تقوله: نعم؟ مش ساكنه ازاي يعني؟

-الناس اللي فوقيكي مهاجرين كندا بقالهم أربع سنين.. والشقه مقفوله ع الفاضي!!!

نور

يقبل علينا بوجهه المشرق، يوزع ابتساماته الدافئة على الجميع. مسندا جسده الصغير على عكازين من المعدن، يسير خفيفا كفراشة، لا تكاد تشعر بخطواته إلا حين تراه أمامك، بعينيه العسليتين وشعره الأشقر مبتسما في ثقة. يخلع ملابسه بهدوء، ويقفز معتمدا على ساقه الوحيدة في حوض السباحه. هويعشق الماء. يشعر بنفسه كالباقين، يتحرك مثلهم فى الماء لا يحتاج لعكازيه، يتفوق على أصدقائه أحيانا، حين يشق الماء كسمكة صغيرة، فيحمل جسده الرشيق ويهدهده. ينسى نفسه فى انتعاش الماء. بينه وبين الماء حكايات واسرار.يمنحه الماء الكثير من التقدير ونظرات الإعجاب في عيون الآخرين، التى تجعل روحه تحلق فى السماء. سرعان ما ينتهى الوقت المخصص للتمرين. يخرج من حوض السباحة معتمدا على

ذراعيه وساقه الوحيدة. تناوله أمه العكازين، وتلاحقه نظرات الشفقة فى عيون الآخرين.

تجلي

تجلت له كحلم ليلة صيف بهية، مشرقة، ذات حضور طاغ يفرض وجوده. كان عطرها يملأ المكان.. جميلة كأميرات الأساطير. لاحت فى عينيه أحلام الصِّبا، ومنى نفسه بكؤوس الخمر من عينيها، لو أنها فقط نظرت اليه نظرة الرضا. وهل تفعل؟ كيف بها تنظر إليه وهى محاطة بالكثير من مريديها الذين يبذلون لأجلها كل عزيز؟ وهل تراه وسط هذا الزحام؟ وبينما يفكر.. إذا بها تنظر اليه باسمة، وتشير إليه من طرف خفيّ أن اتبعني . لم يصدق نفسه فى البداية.. تلفت حوله،فلم يجد أحدا، ولكنها عادت تشير إليه بشكل أوضح هذه المرة، فتأكد أنه المقصود. وحين كاد أن يقطع الأمتار القليلة التى تفصله عنها، انعطفت فى طريق جانبي، ومضت تجرجر ثوبها اللامع الحريري، يتبعها عطرها الأثير إلى نفسه.

سار وراءها كالمجذوب. وحين أدركها، تشبث بطرف ثوبها كطفل صغير.

لكنها فجأة تبخرت من بين يديه، وأفاق من غفوته، ليجد نفسه وحيداً يبتسم.

لف على جنبه الآخر، وأكمل نومه راضيا، واثقا من حضورها في موعد جديد.

جرافيتي

استعدادا لاستقبال العيد، كنت أعد الشقة، وأجدد ما يمكن تجديده. الحوائط فى غرفة الأولاد والطرقة المؤدية إليها لن يجدي معها الغسيل هذه المرة، أخبرت زوجي بأننا يجب أن نعيد طلاءها من جديد، فالأولاد قد حولوها إلى فوضى من الشخبطة والرسوم وبصمات أياديهم الصغيرة طوال سنوات قليلة منذ تعلموا الإمساك بالقلم، وانا أعاني كلما حاولت غسل الحوائط وتنظيفها، فلا أنعم بها نظيفة لأكثر من يوم واحد، ثم يعيدون بعدها الشخبطة ثانية انتقاما لشئ يغضبهم منا، وكوسيلة احتجاج ناعمة يعلنون بها عن غضبهم من عصبيتنا الزائدة. لا ينكر أي منا أننا فى بعض الأحيان نكون عصبيين أكثر مما يجب مع سنهم الصغير. لكنها نتيجة لضغوط الحياة علينا؛ ذات مرة، ملأ أحدهم الحوائط كلمات ركيكة ضدنا، احتجاجا على رفضنا

الانصياع لمطالبهم التى لاتنتهي. هكذا يعلنون تمردهم، كنا نستيقظ فى كل يوم لنجد المزيد والمزيد من هذه الرسوم والشخبطة والكتابات، فنعجب أنهم لا يرضون عنا أبدا، رغم رؤيتنا الراضية تماما ببذل أقصى ما عندنا. فكرنا مرارا أنه قد صار لزاما علينا أن نفعل شيئا تجاه ذلك، لكن لم نعرف أبدا ما هو هذا الشيء. المهم، بدأنا فى المفاضلة بين أنواع الدهانات المختلفة. كنت أريد نوعا يمكن غسيله بسهوله، وهذا لا يتوفر إلا فى الدهانات الأمريكية، بينما يصر زوجى على أن الدهان الأمريكي باهظ الثمن جدا ويمكن الاستعاضة عنه بأي من الدهانات المحلية. وبالطبع، أخذت المفاوضات وقتها، واستخرنا الله، واستعنا بالدهانات المصريه. وبدأنا عملية إعادة الطلاء، التى لم تستغرق وقتا طويلا. والحقّ، كانت النتيجة مبهرة، وشكل الجدران يستحق المجهود والتكاليف التى تم إنفاقها. وقفنا نتأمل النتيجه بكل فخر، وسألت ابنى الاصغر عن رأيه؛ أخرج من جيبه قلما من الفلوماستر، ورسم على الحائط نجمة، وكتب بجوارها "ممتاز!

فاصل قصير

أشق طريقى بصعوبة بالغة وسط الزحام والباعة الجائلين والباعة المستقرين على الرصيف. أحاول جاهدة أن أجد طريقي بين المارة الذين يجاهدون مثلي للوصول إلى غاياتهم، والمشترين الذين يقفون لتفحص البضائع والفصال الذي يسبق عملية الشراء، فيظهر أثره على وجه البائع من استهجان، ويصل إلى حد التراشق بالألفاظ في بعض الأحيان. وسط سيمفونية الفوضى البالغة، وصلت إلى أنفي فجأة رائحة جميلة جدا، هى مزيج من روائح الياسمين والمسك والعود. اندهشت بطبيعة الحال، وقبل أن أفكر فى مصدرها، وجدته أمامي، كأنما انشقت عنه الأرض واتسع المجال من حوله، بحيث لم يظهر فى الصورة سواه واقفًا مبتسما بملابسه البسيطة يحمل بضاعته فى يديه.

هدأ الضجيج من حولي.. وسكنت حركة العابرين.. ورد على نظرة الدهشة فى عيني قائلاً :

– فواحات..... تشتري فواحات؟!

المرآة

أشعر بالحيوية تسري في جسدي.. يومي مشحون كالعادة، مابين البيت والخروج للتسوق ومتابعة دروس الأولاد، والذهاب إلى النادي بعض أيام الأسبوع.. هناك أيضا القراءة والكتابة وتصفح الانترنت. أعرف دائما كيف أجد ما يشغلنى.. أجري.. طوال الوقت أجري، لدرجة أنه لم يعد لدى الوقت لأتوقف وأسأل نفسي تلك الأسئلة من نوعية: هل أنا تعيسة أم سعيدة؟ هل أحصل من الحياة على ما أستحق؟. ربما كوني أعيش اليوم بيومه يجعلني أقل تعاسة من الآخرين. يشبه حالي حال العمال "الفواعلية"، هكذا تمضي بهم الحياة يعيشون اليوم بيومه. إنهم في سعي مستمر لتحصيل لقمة العيش والكسب، يكدّون طوال النهار وصولا للنوم هانئين آخر الليل، وهم ينفقون في يومهم ما تكسبه أيديهم، راضيين قانعين بما تمنحه الحياة لهم، بلا وقت لديهم للتفكير.. إنها قاعدة الراحة: جسد مكدود

وعقل منهك. حين أصادف مرآة ألمحني فيها، أشعر بالرضا والسلام النفسي. بعض صديقاتي يرهقن أنفسهن كثيرا بالتخسيس، وحقن البوتوكس أسفل أعينهن، يتبعن الكثير من البرامج المرهقة التى لا يكملنها، ويشعرن بالذنب حين يأكلن، يلفتن نظري لوزني الزائد، ولكني أتجاهلهن. يكفيني أن أرضى أنا عن شكلي في المرآة. أنا ومرآتي على وفاق بصورة ما، بيننا اتفاق سري ألا تخبرني بما يسؤنى، رغم أني أتركها مغبشة، وأتكاسل عن تلميعها؛ ربما عن قصد. أما حين أحتاج بعض الصور الشخصية الحديثة لاستكمال أوراق ما، فحينذاك أقرر الذهاب إلى الكوافير، ووضع بعض اللمسات الملونة على وجهي. لدي قدر من الجمال الهادئ، ولكن لا بأس من بعض المساحيق تمنح رونقا وإشراقة أفضل. انهت الكوافيرة عملها في خطوات كثيرة: كريم لتصحيح عيوب الوجه! لماذا؟ وضعت بعض الكريم المصحح أسفل عيني قائلة: تدمنين السهر؟

- ينتابني الأرق بشدة منذ فترة طويلة. استغرق الماكياج وقتا أطول مما كنت أتوقع. فى العادي، أخرج بدون ماكياج أوأكتفي برتوش قليلة جدا.منذ سنوات لم أقم

بعمل ماكياج كامل بشكل احترافي. آخر مرة فعلتها، لم يستلزم الأمر كل هذه الخطوات.هذه المرة أجلس مستسلمة لأناملها وقلق غريب عني يخترق سلامي المعتاد. بعد أن أنهت الفتاة عملها، كنت سعيدة بالنتيجة، كما كانت هي أيضا فخورة بعملها. بدا وجهي حقا مشرقا وجميلا في بساطة. أحببت وجهي في المرآة، حدثتني نفسي أن السنوات التى مرت عجزت في أن تترك بصماتها على وجهي الفتِيّ. خرجت من عندها إلى استوديو التصوير الأقرب، كي أحتفظ بزينتي بأعلى جودة، لا يؤثر عليها الحر أوغبار الطريق. حين جاء دوري، جلست أمام المصور الشاب المتفزلك في ثقة، وطلبت منه أن يدعني أبتسم في أريحية دون تدخل منه. أرخيت عضلات وجهي، ونظرت للحائط البعيد، وفكرت في ذكريات بعيدة جميلة، حتى خرجت ابتسامتي كما تمنيتها تلقائية، وسمعت "كليك" معلنة التقاطه الصورة. خرجت لإنهاء بعض الأوراق الأخرى والفرجة على الأسواق أضيّع ساعتين كما حدد لي، قبل أن أعود لاستلام الصور. نظرت إلى الصورة في رضا، وأنا أؤكد لنفسي إن السنوات حقا لم تفلح في ترك بصماتها على وجهي. لا زال

الوقت مبكرا بالنسبة لي لأقلق بشأن التجاعيد. في منتصف الأربعينات أنا!! كثير من السنوات سرقت منى ولم أعشها، لا أعرف كيف تحتسب على وأنا ما زلت أحيا على مشارف الانتظار لشئ ما.. فرحة ما.. خطب ما.

ينتزعنى من أفكاري صوت يهتف باسمي، كانت أميمة صديقة الدراسة القديمة، لم أرها منذ سنوات. يا إلهى! لماذا يبدو وجهها متغضنا هكذا؟ لماذا طبع الزمن بصماته على وجهها لهذه الدرجة؟ سلمت عليها محاولة إخفاء انطباعي، وهربت بعيني من وجهها كي لا تلاحظ تدقيقي في ملامحها. تبادلت معها الحديث بنصف عقل، وتبادلنا أرقام الهواتف، وانصرفت عني. ظللت واقفة في مكاني، وددت لوأصرخ فيها: هل أنت حقا أميمة صديقة الدراسة؟ هل كبرنا حقا يا أميمة؟

عدت مسرعة إلى بيتي، هممت بغسل وجهي، لكن تراجعت. ذهبت إلى مرآتي، وقمت بتلميعها، ووقفت أنتظر الجواب. أعجبني المكياج للمرة الثانية. لكن من ورائه قررت المرآة نقض ميثاقنا هذه المرة رافضة التصالح!

مقعد خشبي في محطة الأتوبيس

حين صدَّقَته وأسكنت رأسها في صدره اختنقت روحها في المسافة الضيقة ما بين ذراعيه وقفصه الصدري، فأفلتت نفسها منه وخرجت من حيزه الوجوديّ تاركةً الباب خلفها مفتوحاً". على ذلك المقعد الخشبي، الدنيا أضيق من أن تستوعبها، ضيق صدرها كأنما تصعد في السماء، لا تشعر بصخب الشارع ولا ضجيج العابرين تستتر دموعها بالظلام من فضول الآخرين، يرن في رأسها صوته عقب آخر مشاجرة لهما منذ قليل " مع السلامه الباب يفوت جمل". ثار كبرياؤها للكلمة فارتدت ملابسها على عجل وقررت النزول، متوقعة منه أن يلحق بها، لكنه لم يحرك ساكنا، انزوى مع دخان سجائره تاركًا إياها تمضي لحال سبيلها، ربما تخيل أنها ستهبط إلى شقة والدتها بالطابق السفلي ريثما تهدأ الأمور، لكنها خرجت لا تلوي على شئ. بكت وهي تتذكر ميراثها من أبيها الذي تنازلت

له عنه طواعية ومصاغها الذي باعته لحجز شقة لزواج ابنها الذي ما زال يدرس في الجامعة، شعرت باليأس واتهمت نفسها بالغباء "لم يعد لي شئ". في الشقة كان الزوج قد هدأ قليلا، اتصل على هاتف زوجته المحمول ليفاجئه صوت رنينه في الغرفة الأخرى، أخذ يفكر أين ذهبت؟، لام نفسه لأنه تركها تخرج وهي غاضبة، استعاد ذهنه سنواتهما معا، هذه الحمقاء كيف تصدق لحظة غضب وتكفر بكل سني عشرتهما معا؟، لم يكن لسانه عذبا ولم يكن زوجا شكوراً بطبعه، لكن هي كل نساء الدنيا في عينيه "الحلوما يكملش" قالها وهويرتدي ملابسه استعدادا للخروج بحثا عنها، أشاحت بوجهها حين جلس جوارها على المقعد، لم تسمع شيئا مما قال، لم تكن ترن في أذنيها سوى كلمة "الباب يفوت جمل" وإحساسها بأنها وحيدة بلا مأوى، ربما ليس سوى مقعد خشبي في محطة الأتوبيس.

جنية الأحلام

–ماما سنتي اتخلعت النهارده في المدرسة.

كان يبدو هادئا، لا تبدو عليه علامات الخوف أو الجزع، كما حدث لي حين كنت في عمره.

- إنت عارف إن انت كده كبرت وهيطلعلك سنة كبيرة مكانها؟

قال بثقة وابتسامة: عارف

- طيب ياللا نرمي السِّنة في الشمس ونقول يا شمس يا شموسه خدي سنة الجامو...

–لأ أنا هاحطها تحت المخدة عشان جنية الأسنان تيجي تاخدها وتحطلي مكانها جنيه فضة. تملكتني الدهشة، وظهرت على ملامحي، فلاحقني قائلا بحماس يليق بسنه الصغيرة:

–انتِ ما شوفتيش الفيلم الكارتون؟

هززت رأسي أن لا، وأنا أبحث في عقلي عن حلول دون أن أصدم سعادته وتصديقه الشديد لما يقول. قص عليَّ في عجالة وسعادة أحداث فيلم الرسوم المتحركة الذي شاهده، وأنا أحدق شاردة في الفراغ، قررت تأجيل المواجهة لما بعد الغداء، لكنه جرى إلى غرفته ووضع السن الصغيرة تحت وسادته مكررا كلمات الكارتون الفصحى في ثقة: ستأتي جنية الأسنان في المساء بعدما ينام الجميع –فهي لا تحب أن يراها أحد– وستأخذ السن وتترك مكانه جنيها فضيا لامعا. أخذ يدفع عجلة الوقت ليمر اليوم سريعا، حتى آوى إلى فراشه منتظرا جنيته الموعودة. لم أكن لأتجرأ على مفاتحته في الأمر. قضيت سهرتي أقارن بين الجنية والهدية الموعودة وبين "سنَّة الجاموسة. ووجدتني في الصباح، قبل موعد استيقاظه بقليل، أرفع طرف الوسادة، آخذ السن الصغيرة المخلوعة، التي لا تشبه الجاموسة في شيء، لأضع مكانها جنيها فضيا لامعا.

طبيب نفسي

تتمدد على الشيزلونج، مع إضاءة خافتة تتأمل فى ديكورات المكتب.. تماما كما رسمتها فى مخيلتها.. اللوحات الزيتية، والديكور الكلاسيكي الأنيق، جو يبعث على الاسترخاء، لوحة زيتية لامرأة حالمة مغمضة العينين، وهو يسألها أسئلة مفتوحة محاولاً تشجيعها على الكلام، تطرح مشكلتها: لم يعد لديها أصدقاء، أوبمعنى آخر لم يعد لديها مستمعون ربما لأنها تشفق على أصدقائِها من لحظات البوح. تشعر بالذنب تجاه أى شخصٍ يقع ضحية لفضفضاتها الطويلة، تشعر أن كل شخص يغرق فى بركةٍ من الهموم تشده لأسفل، كلنا معا فى نفس المستنقع العفن. لكنها لن تشعر بالذنب تجاه الطبيب. نعم، فهو يتقاضى أجراً ليس بالقليل نظير سماعه لفضفضاتها المشوشة، بل إنه بالتأكيد سيسعده أن يستمع للجميع فهذا ما يضمن له الاستمرار وكسب العيش وإيجار العياده. ماذا

لوتوقف الجميع عن البوح؟ كيف سيكون حاله لو أننا نعيش حالة من المثالية تجعلنا ننصت لبعضنا البعض فى اهتمام؟ من المؤكد أن ذلك كان ليؤثر سلبا على سير العمل فى العيادة. يقطع حبل أفكارها. حين يمد يده إليها بقطعة من الشيكولاتة، تناولتها مبتسمةً: شكراً.

يكمل معها حواراً سبق أن بدأه:

–هل تذكرين متى آخر مرة شعرت بقيمة الأصدقاء في حياتك؟

–منذ زمن طويل، لم أعد أحب أن أشركهم آلامي ولا أخبرهم عن الظروف السيئة التى تمر بي، بعد وفاة والدتي صرت عبئا عليهم باكتئابي وحزني الدائم، لذا آثرت الابتعاد عن الجميع.

–هل مر عليك وقت بعدها وشعرت بأنك تحتاجين إلى صديقٍ حقيقيّ؟

–نعم، وذلك حين قررت أن أجئ إليك، ألا يقول أنيس منصور أن الطبيب النفسي هو صديق مدفوع الأجر؟

–ولذا جئت إلى!! لأنك تؤمنين أنه لا شئ بلا مقابل حقيقي، حتى فى العلاقات الإنسانيه. شعورك أنى أتقاضى أجراً مقابل سماعي لك يزيح عن كاهلك الإحساس بأنك تثقلين عليّ؛ أليس كذلك؟

ارتبكت قليلا، وشعرت بكفيها تتعرقان رغم التكييف. ربما لأنه فهمها أكثر مما ينبغي، وربما أيضا لأنها شعرت به اقترب جدا وتجاوز في اقترابه منها. خطأً لم يتجاوزه أحدٌ قبله. هي دوماً كتومة، لا يعلم أحدٌ فيم تفكر ولا يدري أحد ما يعتمل في نفسِها، وعلى عكس بنات جنسها لا تلجأ للفضفضة حين تشعر بالضيق، مع الوقت، بدأت تقنع نفسها أن الفضفضة للآخرين هي بمثابة إعلانٍ للنقص، يعجز الشخص عن حل المشكلة فيلجأ لشخصٍ آخر يتطوع بإبداء التعاطف ومصمصة الشفاة دون تقديم حلٍ حقيقي. هكذا تنظر لفضفضة الفتيات، فلا تشارك فيها كطرفٍ مرسل أومستقبل، مما أثر كثيراً على علاقتها بقريناتها فصارت مع الوقت بلا صديقات. انتَبَهَت على صوت الطبيب وهويناولها الروشتة مكتوباً بها بعض الأدوية المضادة للاكتئاب، ويحدد لها موعد الجلسة القادمة،

غادرت العيادة بذهن شارد. سارت خطوات قليلة، ثم توقفت بجوار أقرب صندوق مهملات، ومزقت الروشتة، واستوصت بالجزء المكتوب فيه اسمه، فجعلته فتافيت صغيرة. ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة!

حلم ليلة صيفية

رأيت فيما يرى النائم، أني أقود سيارتي في زحام وسط المدينة، مما ساءني كثيرا وحاولت الاعتراض وتغيير النص.. (يعنى الزحمه ورانا ورانا حتي فى الحلم!!!)

ولكنى لم أتمكن من ذلك، فجلست أتابع في صمت، كأني أشاهد فيلما سينمائيا. وصلت بسيارتي للإشارة، وتوقفت بطبيعة الحال. رأيت أناسا يهبون إلينا من جميع الاتجاهات، يحمل أحدهم فوطة قذرة، منقضا بها على زجاج السيارة: "والنبي أي حاجه ربنا يخليكي"، ويحمل آخر عناقيد من الفل بلا رائحة.. ويحمل غيره آيات قرآنية. ويأتى غيره مادًا نحوى يده التى ينقصها إصبعين.. وتأتي أخرى حاملة طفلا صغيرا ذابلا يرقد فوق كتفها كالجثة الهامدة، تمد يدها إلى بعلبة مناديل ورقية: "والنبي ربنا يخليك يا ست هانم"، نظرة يائسة إلى محفظتى، التي لم يكن بها ما يسد أفواه الجميع، جعلتني أتشاغل بالنظر

إلى الفضاء، حتى رحلوا عني. وصلت إلى بيتي منهكة جدا، فأسرعت لأحضِر وجبة خفيفة وأفتح التلفاز، ليأتى الفاصل الإعلاني، وأجد التلفاز قد استحال كائنا خرافيا، له أذرع كثيرة، يمد إحداها في طبقى قائلا: تبرع لبنك الطعام، ويمد لي يداً أخرى تقتنص من سعادتي، حين يعرض صور الفقراء والمرضى والمنكوبين، تبرع للمرضى، للمستشفيات، لإنشاء جامعة دولية!، أغير القناة، لتتلاشى كل الأذرع وتعود من حيث أتت. تطل عليَّ صور بهية لبلد لم تطأها قدماي، يقولون انها هنا! ربما توجد في بعد آخر: "عيش حياة الكومباوند"، حمامات سباحه، وشلالات وجاكوزى، وبحر صناعي فى أطراف القاهرة!، .مساحات من الخضرة الممتدة، تفوق خيالي حين كنت أجتهد لتصور شكل الجنة وأنا أستمع إلى وصفها في خطبة الجمعة. أطفئ التلفاز، أخرج ورقة وقلما لأحسب الباقي من راتبي، في محاولةٍ يائسة لعقد مصالحة بينه وبين الباقي من أيام الشهر، لكن يخرجنى من تفكيري صوت أحدهم قائلاً: هتتبرع بكام عشان مصر؟، أستيقظ على جرس المنبه يدق السابعة صباحا للذهاب إلى العمل.

الصفقة

أمام ورشته، جلس المعلم فتحي يحتسي كوبا من الشاي الساخن، استعداداً لبدءِ اليوم، حتى هدَّأت إحدى السيارات سرعتها، لتقف في النهاية أمام الورشة

–"يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم "

تمتم بها الأسطى فتحي في سره، وهويرى راكب السيارة الأنيق يترجل متجهاً إليه وهويرفع يده بالتحية:

- صباح الخير يا اسطى فتحي

- أهلاً صباح النور، اتفضل يا باشا

قالها المعلم بفتور لم يخف على صاحب السيارة، الذي كان يرتدي بذلة فاخرة، تطل على حذاء من الجلد الأسود اللامع، وقد ظهرت من تحت البذلة ألوان رباط العنق الحريري المنقوش بكتابة اسم عريق أجنبي يضفي على الرجل اختلافا

عن عامة الناس، اضافة للساعة الأنيقة ذات الميناء الداكن تحيط رسغه لتكمل الوجاهة.

- إيه الأخبار

- تمام الحمد لله

- أنا أصلي لقيتك ما جيتش حسب الميعاد ولا بترد على التليفون قلت لازم آجي بنفسي واطمئن عليك

- لا أبدا أنا أصلي كنت سهران امبارح فى الشغل وما قدرتش اصحى بدري

- آه ربنا يقويك، طيب خلاص احنا ممكن نروح دلوقتي نخلص الموضوع

- لا والله مش هينفع دا وقت شغل زى ما سيادتك شايف ومش هاقدر اسيب الورشة لوحدها

- خلاص يا باشمهندس حدّد الوقت اللي يناسبك مفيش مشكله.

تجاهل الاسطى فتحي تلك الجملة، ونادى على صبيه كي يأتي بكوب شاي للباشا، الذي انتهزها فرصة للجلوس والضغط على فتحي ليصل إلى مراده، أراد مستر حسين– كما يطلقون عليه في شركة التأمين الأجنبية– أن يشدَّ انتباه فتحي، ويكسر ذلك الحاجز الثلجي بينهما. وبينما كان الصبي يضع أمامه كوب الشاي، وقبل أن يتشاغل فتحي بأمور الورشة، تنحنح مستر حسين قائلا:

– العربيه بقالها كام يوم كده صوتها مش عاجبني عاوزك تبصلي على الموتور

كان واضحا من الاهتمام البادي على وجه الأسطى فتحي أن خطة الأنيق قد نجحت، فرقص داخله طربا. هو لم يكن يكذب على أية حال، فسيارته وإن كانت حالتها جيدة، فهو قد اشتراها مستعملة، ومن الطبيعي أن تظهر بعض المشكلات الفنية بين الحين والآخر. قام فتحي بفتح كبوت السيارة، واستغرق في الفحص، بينما وجدها حسين فرصة سانحة لإتمام ما بدأه بالأمس:

- شكلك لسه متردد وقلقان من حكاية التأمين دي

ابتسم فتحي ابتسامة خفيفة، موجها تركيزه الأكبر نحو السيارة، وهويجذب الشداد المتصل بدواسة البنزين، ليعلو صوت الموتور مزمجرا في غضب، انتظره حسين عساه يتكلم، لكن زادت مساحة الصمت بينهما إلى أن قطع فتحي الصمت قائلا:

- الجوان عاوز يتغير وهتجيبلي طقم بوجيهات

- طب خلاص هاتهم وأنا أحاسبك عليهم

بحماس لم يخف على حسين : هتعملها دلوقتي حضرتك

رد حسين بالموافقة معلقا في مرح: شفت ازاي أنا زبون سهل باخد القرار بسرعه ومش باتردد زيك

ضحك فتحي في خجل، وأملى على صبيه القطع المطلوبة، وقد اتضح أنه أصبح أكثر استعدادا للكلام:

– والله مش حكاية تردد ولا حاجه. بص أنا هاكلم حضرتك بصراحة و مش عارف إذا كنت هتفهمنى واللا لأ.

كان حسين ينظر إليه ويهز رأسه مشجعا إياه على الكلام

– أنا اتولدت بين ست اخوات. كنا كوم لحم في رقبة أبويا. ما كملتش علام ونزلت شغل من وانا عيل صغير، الدنيا مرمطتني كتير، كان الفقر من ناحيه وقسوة أبويا من ناحية، أنا كنت باصرف على نفسي وعلى البيت كمان من وعمري سبع سنين، ما افتكرش في مره ولا في عيد جابلي هدمه جديدة، عمره ماقاللي كلمة حلوة، كان معاملته ناشفة معانا، فاكر انه كده بيعمل مننا رجالة

تابع عمله في السيارة وهويكمل حديثه:

–عشت طول عمري نفسي ابويا يموت عشان أقبض بوليصة التأمين، ما هوكان مأمن على نفسه في شركة التأمين الحكومية، عارف البوليصة كانت بكام؟

هز حسين رأسه علامة الرفض

–عشرين ألف جنيه تصور!! كان نفسي أبويا يموت عشان آخد نصيبي الشرعي من تركة تساوي عشرين ألف جنيه.

كان حسين يستمع إليه في صمت، متأملا قسمات وجهه وهويتحدث، كان يستمع ولكن صوت فتحي لم يكن يصل إلى عقله، الذي يرن فيه فقط صوت مدير الفرع يتحدث عن "التارجت "الذي عجز عن تحقيقه الشهر الماضي، فأصبح بقائه في الشركة معتمدا على تحقيق تارجت البيع لهذا الشهر. فتحي بالنسبة له رقم يمكن أن يضاف إلى التارجت، ونسبة مئوية من البوليصة تمثل عمولته من الصفقة وتضمن بقائه في شركة التأمين الأجنبية. فتحي لهذا هو هدف مهم وحرِج. يبحث بين طيات كلام الرجل عن ثغرة ينفذ منها إلى عقله، يقوده بها إلى فرع الشركة لتوقيع البوليصة، ويرى في استرساله في الكلام وسرده لأسباب رفضه للتأمين كشفًا لبنيان الحائط الذي ينبغي عليه اختراقه. يصبر أكثر، ويحسن الاستماع، وهو يفهم جيدا أن العميل دائما ما يقاوم الرغبة في الشراء حتى يقع كالفريسة بين يديّ رجل البيع المميز، الذي يمكنه أن يقتاده بإرادته إلى الفخ المنصوب بإحكام، أدواته المظهر الأنيق، البدله، السيارة، الساعة، الحذاء اللامع ثم شنطة اللابتوب الحديث، أكمل فتحي وهويقول:

- كافحت كثيرا حتى استطعت فتح هذه الورشة، واستطعت أن أكبر في المهنة.. تحدثني عن تأمين مستقبل أبنائي؟، أنا أدخلتهم المدارس الخاصة، وبنيت لكل منهم شقة، وأودعت لهم ودائع بأسمائهم في البنوك.

قاطعه الـ "مستر" مستحضرا ما يقال عند هذه النقطة:

–جميل، كل دا جميل جدا لكن بوليصة التأمين هتوفر لك تغطية تأمينية تعوضهم عن دخلك في حالة لو لا قدر الله انك مش موجود، ويفضل رصيدهم في البنك ما ينقصش، وتفضل الشقق لحد ما يكبروا. ربنا يخليك ليهم طبعا بس مش عيب اننا نعمل حساب الظروف.

قلب فتحي شفتيه فى امتعاض، وهويلعن –في سره– ذلك الغراب الناعق الذي أتاه في ساعة صبح يتمناها مفترجة.

سادت فترة من الصمت، قطعها صوت فتحي قائلا:

- أبويا لما مات نصيبى من البوليصة كان حوالي ألفين جنيه وكسور. كنت خلاص وقفت على رجليا واتجوزت وفتحت الورشة والدنيا بقت عال. يعني مبلغ البوليصة ما فرقش معايا

أصلا. لكن موت أبويا هواللي وجعني قوي، وفضلت طول عمري حاسس بالذنب اني كنت باتمنى له الموت عشان الفلوس.

كان حسين صامتا يقلب الكلام في رأسه، حين أغلق فتحي كبوت السيارة بإحكام، ونظر في عيني حسين مباشرة وهويقول:

– الحساب دلوقت وللا يوم الحساب يا أستاذ حسين؟

مد يده إليه بفواتير البوجيهات، وتركه متجها بابتسامة عريضة إلى زبون جديد جاءه يشتكي من قرقرة موتور التوكتوك المتهالك.

الخروج من الحارة

عم طلبه.. يسير في الميدان المزدحم، ذاهلا عما حوله، لا يسمع شيئا من صخب الطريق. ينتبه إلى بوق زاعق لإحدى السيارات، فيفسح الطريق بينما يسبه سائقها. لا يرد عليه، ويجلس على الرصيف منهكا دامع العينين. لم يعرف إلى أين يمكنه أن يتوجه في هذه الساعة. يشعر بالدنيا قد ضاقت عليه بما رحبت، فأصبحت أضيق من سم الخياط. في مثل هذا الوقت كان لينهمك في عمله، لا يجد لحظة للتفكير. ولكن ماذا يفعل وقد لفظه العمل ولم يرض به، بعدما رضي هوبالجنيهات القليلة التي لا تسد رمق الأفواه التي لا تكف عن طلب المزيد. لفظه العمل، بعد أن بدأت تظهر عليه أعراض الشيخوخة، ولم يعد قادرا على الأداء بالمعدل المطلوب. امتص المصنع دمائه وعافيته، ثم لفظه على قارعة الطريق هكذا، بلا رحمة ولا شفقة، ولا مكافأة نهاية الخدمه، إذ تحججوا بنقص السيولة

وظروف البلد والإنتاج المتعثر. وعلى الرصيف، أحاط خديه بقبضتيه، يحمل في رأسه هما ثقيلا، وفي صدره ضيقًا وبقايا من عوادم المصنع تراكمت على رئتيه مسببة له نوبات من السعال الشديد.

لم يستمع إلى زملائه الذين قرروا التظاهر أمام بوابة المصنع والاعتصام حتى يتم تعويضهم وصرف مكافآت نهاية الخدمة لهم، تعود دائما أن يسير بجوار الحائط، يتجنب الدخول في أى مشكلة،مكتفيا بما يحمل من الهموم، مل جلسته، فقام يسير على غير هدى، حتى وجد قدميه تقودانه إلى تلك الحارة الضيقة التي سكنها من سنوات طوال. سار متجنبا بقع الوحل والطين التي سببها سكب النساء للمياه من البلكونات ورش الشارع وربما انسداد بالوعة الصرف. لم يعد يهتم، فقد صارت بقع الوحل تلك من سمات الحارة وعلامة من علاماتها المميزة التي لا تلبث أن تجف لتعود ثانية. طرق باب البيت لتفتح امرأته وتتفاجأ به. سألته عن سبب عودته مبكرا فلم يجبها، وأمرها أن تعد له كوبا من الشاي، وتمدد في فراشه. شرد بذهنه يفكر في ما تبقى معه من المال، والإيجار الذي يلزم دفعه،

ومصاريف البيت التي لا تنتهي. أحضرت زوجته الشاي، وجلست إلى جواره، وقد وجدت في عودته مبكرا فرصة سانحة لتلح عليه في موضوع الأمس:

- إعمل حسابك الواد حسن عاوز جزمه جديدة عشان المدرسة، جزمته اتهرت وما عادش ينفع معاها تصليح.

شرب رشفة من كوب الشاي، فاكتوى بمرارته. كان يحب الشاي سكر زيادة، ولكنه عود نفسه على الاقتصاد في السكر، فرضي بالمرارة في كوب الشاي كما رضي بما تجود به الحياة.

- ها ما قلتليش بأه هتجبلي الغسالة الأتوماتيك إمتى؟

نظر إليها نظرة فارغة ومط شفتيه في ضيق ولم يرد

- أنا خلاص صحتي ما عادتش زي الأول وضهري اتقطم من الغسيل ع الغسالة القديمة دي، دي عمرها من عمر جوازنا

نظر إليها قائلا: الظاهر كلنا قدمنا وراحت علينا يا فوزية.

نظرت إليه في عدم فهم، وكادت أن تكمل ما بدأته، إلا أنه أغلق باب المناقشة بأن شد على نفسه الغطاء، دافسا وجهه

داخله وهويطلب منها أن تطفئ النور لينام قليلا، فانسحبت خارجة، أغلق عينيه، حتى صار على عتبات النوم عله يستريح ويريح عقله من الهموم. لكنه في الحلم كان محاصرا بحذاء ابنه المقطوع، يخرج لسانه له في تحد، ورأى الغسالة القديمة تئن في ركن المنزل، فخرج من منزله وطعم المرارة في حلقه، ليتعثر في بقع الوحل الكثيرة في الحارة؛ فاستيقظ فزعا.

ارتدى ملابسه على عجل، وخرج من الحارة الضيقة –متحاشيا السقوط في برك الوحل، التي اتسعت رقعتها لتشمل الحارة– متوجها إلى المصنع. رأى زملاءه يقفون على باب المصنع.. يحملون اللافتات، يهتفون بغضب، ناوله أحدهم لافتة كتب عليها "الثورة مستمرة"، حمل اللافتة أمام عدسات التلفاز، وحين اقتربت منه المذيعة الأنيقة قال لها: "إحنا مش هنمشي لغاية ما ناخد حقنا. أخذ يهتف مع زملائه، وكلما تذكر الوحل الذي يكسو أرض الحارة تعالى هتافه أكثر، وازداد إصرارا.

سمع من بعيد دوي سيارات الشرطة، فعلا صوته وصوتهم جميعا بالهتاف، وتشابكت أياديهم، غير عابئين بما سيحدث!

السؤال

كان دورها هذه المرة. بدأت تقرأ من الورقة، فعانينا كثيرا للإنصات، فصوتها كان منخفضا للغاية، مما تطلب مني قدراً هائلا من التركيز لمجرد تفسير الكلمات، ضاعت معه أجزاء الحدوتة والمعنى.رغما عني، أتأمل ملامحها وهي تقرأ القصة.. كان يبدو عليها الارتباك مع تصاعد الأحداث. القصة تحكي عن زوجة اكتشفت خيانة زوجها بالصدفة. لاحظتُ لمعان الدبلة الذهبية في يدها اليسرى الممسكة بالورق. تذكرت سؤالا كنت أسمعه كثيرا وأبغضه كثيرا جدا: هل هذه القصة/ القصيدة واقعية أم أنك تخيلت أحداثها؟".

لا أعرف لم حضرنى هذا السؤال ساعتها.. وددت لوأني أمتلك هذا القدر من الجرأة أو الحماقة لأسألها. طفت بأعين الحضور في جولة سريعة.. بدا لي أن هذا السؤال يدور في رؤوسنا جميعا ولكن أحدا لم يفصح عنه.

بصوت متهدج موشك على البكاء، يفضح ما بصاحبته من ألمٍ، أنهت قصتها، وانتظرت تعليقاتنا.لمحت دمعة في عينيها تلوح من وراء زجاج نظارتها الطبية بينما ساد الصمت. بدأت أنا، وحرصت على جذب أعينهم وعقولهم عند تعليقي، ريثما تلتقط هي أنفاسها وكبريائها. أخذت النص إلى منطقة بعيدة عن الجرح والخيانة وحدود الألم. مدحت أسلوبها، وناقشتها في بناء القصة وفي النهاية التي عليها تغييرها لتحقيق المفاجأة للقارئ. كانت تستمع باهتمام، وتمسك القلم، ترسم به قوسين يحيطان بالنهاية القديمة.. وشيئاً فشيئاً، كانت تختفي تلك النظرة الحزينة في عينيها، ويبدو فيهما بريقٌ آخر.. مزيجٌ من السعادة والحماس، أعرفه جيدا، إحساس رائع بالنشوة، يتضاءل أمامه انهزام بطلة القصة.

ضهرك يا أستاذ

لم تكن الساعه قد تعدت التاسعة صباحا، حين كان يحاول أحمد بصعوبة بالغة أن يشق طريقه بين الأجساد المتلاحمة، محاولا ما أمكنه تفادي الاحتكاك الذي لا مفر منه في هذا الزحام غير الإنساني، في أتوبيس الهيئة، والذي يمر منه الكمساري والباعة الجائلون بمهارة فائقة وهم يرددون: ضهرك يا أستاذ، ضهرك يا أبله، وهي نفس الجملة التي كثيرا ما يسمعها وهويمشي في الأزقة الضيقة بالموسكي والعتبه. حين استطاع النزول فى محطة إنبي، قاصداً وزارة البترول، وقف برهة ليستنشق بعض الهواء الذي أحسه نقيا مقارنة بالجو الخانق داخل الأتوبيس، اصطدمت عيناه بحشد كبير من البشر، شباب وفتيات في مثل عمره ومن المؤكد أنهم جاءوا لنفس السبب –الإعلان الذي نشرته الحكومة عن فتح باب التقديم لوظائف فى الوزارات والهيئات الحكوميه– فقرر أن يبدأ من وزارة البترول.

حاول الاقتراب من بوابة الوزارة، التى ولدهشته لم يتزاحم الشباب عندها، بل كانوا موزعين على جانبيها بشكل فوضويّ. منعه رجل الأمن بإشارة من يده قائلا: ممنوع!

-أنا عايز أقدم ورقي، مشيرا بالملف الذي يحمله

أشار الرجل بيده فى لامبالاة قائلا:

-إشتري استمارة تعيين من الأخ اللي هناك دا وابعتها بالبريد وهم هيكلموك (مشيرا بيده إلى شاب يقف على الرصيف ومعه العديد من الأوراق).

-"أمري لله" هكذا قال فى نفسه وهويمد يديه بالجنيهات الثلاث ثمن الاستماره، متسائلا فى نفسه عن جدوى التقدم فى ظل هذه الأعداد الكبيره....

-إستمارة لو سمحت

-وزارة إيه؟ أنا عندي استمارات وزارة البترول، المالية، الكهرباء.....

فكر قليلا قبل أن يشترى نسخة من كل الاستمارات التى كانت متاحة للبيع، ربما تصيب مع إحداهن.

وقف على الرصيف، لم يعرف ماذا يفعل فالشباب لم يغادروا، قرر أن ينتظر قليلا ربما يفتحون الأبواب لهم ليدخلوا ليقدموا أوراقهم ويجروا لهم المقابلات الشخصيه، أخذ يقلب فى الاستمارات التى اشتراها ولاحظ أنها لم تكن مصممة بعناية، لأن المعلومات المطلوبه كانت قليله جدا، والفراغات التى يتعين عليه ملؤها لم تكن لتكفي. خانة العنوان صغيرة جدا، وأيضا خانة الشهادات التى حصل عليها لن تكفي ليذكر أنه حصل على العديد من الدورات فى الإداره واللغات والحاسب الآلي والتنميه البشريه. كيف سيكتب عن مهاراته التى لم يكتشفها أحد بعد، وعن استعداده للعمل تحت ألف ضغط.. عن احتياجه للعمل بشدة، عن انكساره حين ينظر فى عيني أبيه، عن حبيبته التي لم يستطع أن يجعلها تنتظره لأنه لا يرى نهاية لهذا الانتظار.. عن أحلامه المؤجلة وحياته المؤجلة. لن تكفي تلك الفراغات الصغيرة المحشوة بتلك النقاط السوداء المتراصة أن تستوعب عشرة أعوام قد حسبت عليه

وهويؤجل حياته يوماً بعد يوم، حتى تسربت السنوات تاركةً إياه فى منتصف الطريق بين شبابِه وكهولتِه. بعد وقتٍ ليس بالقصير، أدرك أحمد من خلال الأعداد المتزايدة التى تتوافد على المكان أن الوزارة لن تفتح أبوابها لأحدٍ في ظل هذا الزحام الشديد، فقرر أن يمضي لينفذ نصيحة رجل الأمن. اتجه إلى أقرب مقهى، وجلس فاردا أوراقه على المائده، وبدأ فى ملء الاستمارات باذلاً قصارى جهده فى الإشارة إلى النقاط التى تميزه عن غيره من المتقدمين. فى حدود المساحة المتاحة للكتابة، ذكر شهادة الدراسات العليا، وذكر أيضاً إجادته للغة الانجليزية، رغم أنه لا يتقنها تماما، فهو لم يكن من خريجي اللغات، بالاضافه إلى إجادته التعامل مع الحاسب الآلي. أخذ يفكر في مشكلة أنه ليس حديث التخرج، وليس لديه أيضا سنوات خبره كافيه، كما أنه لم يتخرج بتقدير عال.. كلها عقبات تعود الى نظام التعليم الحكومي الفاشل. لقد تخرج من دفعة بها حوالي ثلاثة آلاف طالب، مقسمين على مدرجين.. أسلم أمره لله، وأنهى ملء الاستمارات، ثم توجه إلى أقرب مكتب بريد، وهناك صدمته المفاجأة، أعداد مهولة تفوق الزحام

عند إنبي أضعافا مضاعفة. لن يستطيع حتى شراء طابع بريد. كان الزحام يجعل الوصول الى المكتب لشراء طابع أوحتى إلقاء الظرف فى الصندوق حلما بعيد المنال، وقف مشدوها يرقب الفوضى الشديده والأصوات المتداخله:

-معاك قلم من فضلك

-عديني لوسمحت

-لوسمحت ما تعرفش عنوان وزارة الماليه؟

-الرقم البريدي بتاع وزارة البترول كام؟

-عن إذنك يا أستاذ!!

-إيه مش تفتح؟!

-ضهرك يا أستاذ!!!

-أووف إيه الزحمه دي!!!

-دول بيقدموا على وظائف أصل الحكومه نزلت إعلان

-وهى معقول الحكومه هتشغل كل دول!!!!

-ضهرك يا أستاااذ!!!

وحين أفاق من تأمل ما حوله، كان قد اتخذ قرارا نهائيا لا رجعة فيه، شق طريقه وسط الأجساد المتلاحمة، حتى استطاع الوصول إليه. رفع الغطاء الرمادي مقاوما الاحساس بالقرف، وقطع الأوراق باتجاه طولي حتى لا تظهر بياناته الشخصيه، وألقى بها في قاع البرميل، وعاد ليستقل نفس الأتوبيس الذي جاء به. لحسن الحظ، وجد موضعا لقدمه، ومكانا ليمسك بالماسورة المعدنية على سلم الأتوبيس. وحين اقتربت المحطة التالية، اندفع البعض لينزلوا،صارخين به: ضهرك يا أستاذ.

ضحك.. شطح خياله وهو يفكر أن كل هؤلاء الذين يتحدثون عن ظهورهم، لا ظهر لهم على الإطلاق!

ماذا بكِ؟

-1-

حين كنت صغيرة كنت أميل كثيرا إلى الشرود والعزلة، وكان يضايقني الحاح أمي وسؤالها الدائم: ماذا بكِ، والآن لا يلاحظ أحد ميلي الدائم للشرود والعزلة.

-2-

أحاول أن أضفي بعض البريق على صوتي، أبتسم كموظفي خدمة العملاء وأضحك بلا مبرر ، ولكنها تقاطعني فجأة قائلة: ولاء، ماذا بكِ، لا يبدو صوتك على ما يرام ، فترتبك في يدي سماعة الهاتف.

الفقر

-1-

"لم يكن فقيرا، فقد كان لديه بقرة وبضع دجاجات، وابنة جميلة أرسل صورتها لسمسار القرية."

-2-

"كان فى الخمسين حين تزوج من فتاة صغيرة سرق منها أعوامها العشرين فبدا أكثر شبابا"

السجن الزجاجي

صباحٌ عاديٌ جدا.. وأنا أصعد درجات السلم الدائري المفضي إلى مكتبي، فى ذلك المكان المنمق الجميل، المطل على حوض السباحة والحديقة الصغيرة، فاجأني صوتٌ عالٍ لزقزقة العصافير. فى البداية ابتسمت لنفسي فى سعادة، فأنا أحب جدا صوت الطيور. ولكن سرعان ما استوقفنى ارتفاع الصوت جداً. حين نظرت للأعلى، وجدت عصفورا صغيراً جداً، لا يتناسب حجمه مع كمية الضوضاء التى يحدثها بصوته العالي. بدا كأنه يستنجد. كان المسكين يرفرف بمواجهة لوح الزجاج المتدلي من السقف محاولا الخروج، فيصطدم بالزجاج فى كل مرة، ويصرخ.. ثم يعود ليحاول مرة أخرى....

رن الهاتف، فتركته يحاول، وانشغلت ببعض المكالمات الهاتفية المتتابعة، وبمراقبة أعمال النظافة فى المكان، وبثرثرة عاملة النظافة وحكاياتها التي لا تنتهي. كنت أحب حديثها البسيط،

فقد كان جو العمل يفيض بالصراعات والتنافس بشكل لا يحتمل دون بعض التغيير. عدت إلى الجلوس خلف مكتبى مرة أخرى، فإذا بالعصفور ما زال مستمرا فى محاولاته، فابتسمت معجبةً بإصراره. هذه المرة شغلني عنه الجوع والتفكير فيما يمكنني أكله وأنا أتبع حمية غذائية للمره المليون. لم أجد شيئا يصلح للحمية التي أتبعها، فطلبت كوبا من الشاي بدون سكر، ووقفت فى شرفة المبنى، أتأمل النزلاء فى حوض السباحة.. فتيات فى عمر الزهور ينثرن ضحكاتهن فى الهواء، أطفال يلعبون كرة الماء ونسوة عجائز يستلقين تحت أشعة الشمس الدافئة، والمكان يسبح فى أغانى فيروز، كنت أراهم كل يوم من مكان عملي في هذا النادي الترفيهي، فلا أملٌ مرحهم أبدا. كان العصفور لا يزال يصرخ حين عدت إلى جلستي السابقة خلف المكتب، عدت أتأمل حال هذا العصفور.. لو أنه فقط يفكر.. لو أنه يحلق في اتجاهٍ آخر، لربما استطاع أن يرتفع ويتحرر من سجنه الزجاجي. لكنه لم يفكر. وأنا أيضاً، .ظللت جالسة خلف مكتبي، أنهى أعمالي المكتبية المكررة، وأشرب الشاي دون سكر.

القديس المارق

"على ضفاف الحياة أكون، فلا الكون كونٌ ولا الفرح فرحٌ،
أراقب أحزانكم فلا تدمع عيناي، لا تلمس قلبي معزوفة نايٍ
أوأيقونة حزنٍ.. فقط أقف على الحافة بين الوجود وبين العدم"

كانت الرياح تصفر عاليا، والهواء يطير الغبار والأتربة، والجومصفرٌ جدا. توسطت الشمس السماء، حين فرد النسر جناحيه، ليحجب نورها عن الجمع الواقف فوق قمة الجبل.وقف الكاهن الأعظم عاري الصدر، يرتدي عقدا من أنياب الحيوانات، مرسلا شعره ليطيره الهواء، ممسكا بإناء من الفخار به بعض الحصى الملونة، دُون على كل منها اسما لأحد الشباب المتحلقين حوله، كانوا ثلة، تم اختيارهم بعناية من شباب القبيلة الأشداء. سيُقدم أحدهم قربانا للآلهة لكي تصفح عن القبيلة، ولعلها تمنع عنهم غضب الريح –الذي امتد لأسابيع– وربما ترسل الأمطار، بدت على ثلة الشباب أمارات

الصحة والقوة، بينما ينتظرون بملامح جامدة، وقد لوحت الشمس وجوههم التي لا تشي بشئ، على بعد، تحلق أهل القبيلة ينتظرون نتيجة الرمي، ليعرفوا من الشاب الذي ستحل عليه بركة الاختيار.

وقف الجمع بقلوب واجفة وصمت مطبق. وخلف الكاهن وقف رجلان يمسكان بطبول ضخمة، استعدادا للبدء عند الإشارة. أومأ الكاهن بعينيه لمساعده، فأعطى الإشارة، ليتعالى قرع الطبول، ويتعالى معه وجيب قلوب الواقفين، ثم أسكتهم الكاهن بإشارة مفاجئة من يده. أخرج الأحجار الخمسة من القدر، وألقى بها في الهواء بشكل عمودي، وأمسك بالقدر في يده يتلقاها عند الهبوط. سقط حجر واحد فقط في القدر، فمد الكاهن يده واستخرجه، لينطق اسم ناثان، اتجهت عيون الجميع إلى حيث كان يقف الشاب عاري الصدر مفتول العضلات، وقد لوحت الشمس بشرته، وشعره الفاحم مرسل للريح، تحمل ملامحه بعض الوسامة المحببة، أخذت أمه في البكاء والعويل، لتواسيها باقي النسوة اللواتي تجمعن حولها، كانت تهتف من بين شهقاتها: إنه ولدي الوحيد....ولدي الوحيد.

إحدى الفتيات في طرف الجمع أغشى عليها أيضا حين نطق الكاهن اسم ناثان، الذي كان ذاهلا عما حوله، فلم يسمع كلمات الكاهن عن البركة التي ستحل عليه من السماء، وعن الألوهية والتقديس اللذين سينالهما حين يضحي بنفسه كقربان للآلهة، ليصبح بدوره إلها ينضم إلى زمرة آلهة تصطف تماثيلهم في معبد القرية

كان يقف وكأنما غادرته الروح، حين مد الكاهن يده ليطبع على جبهته وسم الزعفران والكركم المقدس. ظل ساهما، حتى انتهى الطقس المقدس، ونزل بصحبة الجميع عن قمة الجبل، فأسكنوه خيمة في مركز القرية، استعدادا لأيام الاحتفالات العشر، حتى اكتمال القمر إيذانا بتقديمه للآلهة.

كان ناثان ساخطا على القبيلة والكاهن وأهل القرية الملاعين الذين يريدون موته. ما الذي قدمته القرية اللعينة له كي يضحي بحياته من أجلهم؟، ثم من اختار موته؟.. هذا الكاهن الوضيع لم يكن ليضحي بابنه. تحججوا بألم أصابه في رحلة الصيد الأخيرة، ولم يصطحبوه معهم إلى سفح الجبل.

وماذا عن ساشا؟ تلك الجميلة التي يعشقها. يتجسد عينيها العسليتين والتماع جسدها تحت ضوء القمر حين كانا يمارسان الحب خارج حدود القبيلة.، كان ينتظر انتهاء الأزمة حتى يطلبها في احتفالات القبيلة؟

نظر حوله بعينين خاليتين من الروح. كانوا يستعدون لمرح الاحتفالات، يمرون بجواره مهنئين حظه.. التقديس والألوهية تنتظرانه، مال وفير وأرض ستحظى بهما أمه، ومعبد يقام فيه القداس لروحه، هو لا يريد تقديسهم المزعوم.. أراد فقط العيش كأي منهم. أن يخرج للصيد، أن يتزوج وينجب ذكورا ليصبحوا مثله.. هذا هو الخلود الذي يرتجيه. هو ليس بريئا لتختاره الآلهة كقربان لها. بشر موصوم بالخطيئة، لم يطلب الغفران يوما، فلماذا تسعى وراءه الآلهة؟ لماذا لم تختر قديسا يتمسح تحت المذبح ويقدم القرابين في الأعياد؟، قبيل الفجر، حين هجع القوم جميعا، حمل معه أمتعة قليلة، وأسرج جواده، ليطير شعره مع الريح التي تزمجر غاضبة في أذنيه، فلا يسمع سوى خفقات قلبه وصوت أنفاسه تنبض بالحياة.

غدر

"لأنه صعب جدا أن تحتوي نهرا، وأنا نهر"

***

وضع القليل من الطعام المجفف في طبق القطة، التي كانت تتطلع إليه في شغف شديد، وعيناها معلقتان بالعلبة الملونة في يده. وانصرف عنها –كعادته– دون أن يلاحظ أنها لم تحصل على كفايتها من الطعام، ليعلو مواؤها طوال الليل.

في الفراش.... يؤدي طقسه اليومي مع امرأته، وينتهي منها سريعا، ليغط في نوم عميق، وتبقى هي ساهرة حتى الصباح ولكن هذه الليلة مختلفة، فقد تجاوب قط الجيران مع مواء قطته الجائعة، ليعلو صوتاهما معا في سيمفونية معذبة

حين استيقظ في الصباح، وجد نفسه وحيدا، مع فراش خال، وطبق القطة الفارغ، وصمت مطبق.

حب من نوع خاص

الهواء يداعب شعرها، بينما يسيران متخاصرين على شاطئ البحر، وقد خلعا أحذيتهما وتركا الامواج تداعب أقدامهما. تشعر أنها تسير فوق السحاب، تنظر إلى تعانق البحر والسماء لتشهدهما على قصة حبهما. كانت تحب نظرة الانبهار فى عينيه حين تتكلم.. الدهشة الممتزجة بالحب تطل من عينيها حين يصدر منه أى تعليق. تفرح كطفلة بهداياه الصغيرة، ولقاءاتهما البريئة، والثرثرة على شاطئ البحر، ترى الأزواج يجلسون على الشاطئ، يقرأ الرجل فى الجريدة، بينما تنشغل السيدة بمراقبة الأولاد أو النظر إلى البحر مستغرقة فى التفكير.. تسأله: هل سنصبح مثلهم يوما؟

فيرد ضاحكا: لن نصبح مثل أحد، سنصنع أسطورتنا الخاصة، سيتعلم منا الجميع كيف يكون الحب.

تملؤها ابتسامته المطمئنة بالسعادة، وتغمرها النشوة من الثقة التى يتحدث بها، وتكف عن القلق. وتمضى الأيام فى سرعة، ليصبحا جسدا وروحا تحيا بنبض واحد، ينهلان من نبع العسل المصفى لآخر قطرة.

التفاصيل يجب أن نحافظ عليها لكي نبقى معا. كل تفصيلة صغيرة تحمل هما صغيرا يكدر صفو مشاعرهما، ويعكر حياتهما بعض الشئ. فواتير الكهرباء أتت اكثر من الشهر الفائت، عليه أن يبحث عن عمل إضافى ليكفى احتياجات الطفل القادم، ومصاريف الولادة باهظة جدا، والمستشفيات الحكوميه ليست خيارا مطروحا لاستقبال طفل الحب الذي يستحق أن يحسنا استقباله. وعند البحر في يوم الإجازة، انشغل عنها بقراءة الجريدة، محاولا انتشال نفسه من دوامة التفكير،ويخفي عنها قلقه. وانشغلت هى بالنظر إلى البحر، تشكو إليه تقلب الأيام وتمسح دمعة تسللت من عينيها من خلف زجاج نظارتها الشمسية، وهي تنظر إلى عاشقين يمران بهما متخاصرين، يداعب الهواء خصلات شعرها، ويضحكان في عذوبة لم تكدرها الأيام بعد.

شبيك لبيك

ورق أبيض وقلم، هما كل ما يحتاجه أي شخص ليكتب ما يريد. لكنه لم يفكر قبل ذلك فيما يريد. فلم تعوده الحياة على المَنْح.. لم تكن كريمة معه على النحو الذي يسمح له بالتمني. أمنياته مؤجلة.. تعوَّد على تأجيل أمنياته حتى لم يعد ذلك يكدره. واحدة تلو الأخرى، حتى اكتشف أنه يعيش حياةً مؤجلة، حياةً مع إيقاف التنفيذ.

قرر الاعتراض على كل شئ، وأضرب عن الطعام. اعتزل الجميع، وامتنع حتى عن الكلام، راغبا أن يوجه صفعة شديدة على وجه المجتمع، الذى لم ينتبه يوما لوجودِه.

كان صمته يصرخ: أنا موجود.. أنا أعتصم.. أنا أضرب عن الطعام، عن الكلام، عن الحياة بلا حياة.

مشكلته الكبرى بدأت حين أحضروا له أوراقا ليكتب ما يريد.

مُر، تُجاب.. شبيك لبيك.... هكذا قالوا، وأكدت عيونهم ما قالوا.

لكنه لم يعرف ماذا يريد.. لقد روضته الحياة ألا يريد.

مزق الأوراق التى جاءت متأخرة جدا، وألقى بها فى سلة المهملات.

غرور

عادت إلى حيها القديم.. لا كزائرة، بل كمقيمة هذه المرة. تحمل حقائب الحزن، وثيابها السوداء، وطفلا يحمل من البراءة عامين، كانت ترى الشارع والشخوص كأنها تراهم للمرة الاولى. كأن الزمان توقف عند سنوات حبها القديم، الذى –على نقائه– لم يستطع الصمود فى وجه الأعاصير. تسير بتؤدة بسبب ثقل حقيبتها وخوفها على طفلها الصغير من السقوط فى الحفر الصغيره التى سببتها مياه المطر فى الليلة السابقة. ترفع بصرها صوب البناية التي تواجه منزل أبيها، وتبتسم لنفسها ابتسامة خفيفة.

لم يتزوج "شريف". رغم الحاح أمه عليه بالزواج، ليخرج من حالة الحزن، إلا أنه انشغل بعمله ولوحاته، يفرغ فيها إحباطاته وهزائمه.

تعرف أنه لم يكن ليتزوج من سواها، ويرضي ذلك غرورها وهي تتبع أخباره من حين لآخر.

هم جيران العائلة،ومن الطبيعى أن تصلها الاخبار دون جهد كبير. لقد تزوجت، وابتعدت بها الأرض، وظلت ترى نفسها على موعد معه،وتثق أنهما ما افترقا إلا ليجتمعا، وما ابتعدا إلا ليلتقيا.

ابتسمت وهي تتذكر كيف عرف الجميع قصتهما فعاتبته، فرد عليها بأبيات نزار :

"أنا عنكِ ما أخبرتهم

أنا عنكِ ما أخبرتهم

لكنهم لمحوك تغتسلين فى أحداقي

للحبِ رائحةٌ

وكيف بوسعها

ألاتفوح مزارع الدُرّاقِ"

لا، لا تلوم نفسها أنها لم تحارب من أجل حبهما، وسلمت الراية فور بدء المعركة.تنقل أقدامها صاعدة الدرجات الحجرية، وهي تستعيد حديث والدتها عن عائلة حبيبها التى لا تضاهي مستواهم الاجتماعي. الجيرة والصداقة بين الأسرتين لم تكن كافية للتغاضي عن ذلك الفارق الاجتماعي. لم تكن إمكاناته المادية تبشر بمستقبل واعد، وهي–على حبها له– لم تكن من القوة لتتنازل عن حياة مرفهة، أو ترضى لنفسها بأقل مما حظت به مثيلاتها من الفتيات في دائرة الأهل والأصدقاء.

وصلت إلى الباب، وفتحت بالمفتاح الذي ما زال معلقا في ميداليتها. دخلت، فلم تبحث عن أحد أو تلقي سلاما، واتجهت إلى حجرتها لتنام.

لم تعرف كم مضى من الوقت، حين استيقظت على أصوات عالية تصل من الشارع. مضت لحظة حتى استوعبت أنها في بيت أهلها، فرفعت كفها أمام عينها تتأمل يدها الخالية من الدبلة الذهبية. الطلاق موجع حتى لوكانت الزيجة كئيبة. انتبهت للضوضاء ثانية، ففتحت النافذة تنظر، فوجدت سيارة

نقل كبيره تنزل حمولتها من الكراسي وقماش الخيم والسماعات الضخمة. من الذي يحتفل من جيراننا في هذا اليوم بالذات!

–فرح شريف ومنى بنت طنط ثريا اللى فوقينا. أصلهم اتخطبوا من شهر

استمرت أمها فى الحديث، بينما شعرت هي بصفعة الدنيا على وجهها

–لكن منى!!....كيف؟ومتى أحبها؟

تركت النافذة، واتجهت إلى المرآة تنظر إلى وجهها فتأخذها الشفقة. تعود لترفع وجهها، وتهتف لروحها في ثقة:

–بل أنا حبه الأول والحقيقي.

سيعيش بجسده معها ولكن سيبقى بيننا موعد مؤجل غير بعيد.

أرق

رأسي مثل أتوبيس نقل عام فى موعد رجوع الموظفين. كعادتي فى حالات التوتر الشديدة، حالما أضع رأسي على الوسادة تتوالى آلاف الأفكار، عما كان وما سيكون. أشياء أنوى أن أفعلها ولا يتسع الوقت.. وأشياء أتمنى ان أفعلها وأيضا لا يتسع الوقت.. وأشياء تحدث رغم عدم نيتي أن تحدث.

أحس أنى أعيش حياة أخرى غريبة عنى، تمر فيها الأيام بلا هوية، ويتسرب الوقت كالزئبق كلما حاولت أن أمسك به. ولكني على شفا حفرة من صداع نصفي فظيع، أعرف مقدماته جيدا. أغمض عيني، أحاول التركيز فى شئ بعيد عن التوتر، فأرى أرنبا أبيض،فأقترب كي أتحسسه.. ألمس فراءه.. ناعم جدا، أحب ملمس الأرانب. ينزلق من بين أصابعي، ويختفي، ويأتى بدلا منه أرنبٌ بني بلون التراب. أتمسك بالأرنب

الأبيض.. استحضره جيدا، فيجيئني بصعوبة هذه المرة. أمسكه بين يدى كي لا يهرب. أتأمل وجهه جيدا، كأنى أحاول أن أحفظ ملامحه. أتأمل جيدا أذنيه، قبل أن تستوقفنى النظرة الباردة فى عينيه، لتمنعني من أن أمعن النظر في وجهه بهذه الطريقه.

أتركه، فيقفز مبتعدا، ويغرق الكون حولي فى الظلام. أتأمل قليلا هذه الظلمة المحيطة بي، ولا أرى شيئا.. أحاول أن أسبر أغوارها، أتبين أبعادها،لكنها تبتلعني.

أصحو، فأجد الظلمة.. وأجد الصداع النصفي الفظيع، الذي لن تفلح معه المسكنات، كالعادة.. وأجد رأسي كما كان، كأتوبيس نقل عام مزدحم بالركاب.

انتظار بلا نهاية

الزمن: إنه في العام ألف بعد بضع آلاف...

***

على رصيف المحطة، عجوز أحنت ظهره الأيام، يصطحب كتابا وديوان شعر لشاعر مجهول.. شاعر، لم يغير شيئا في جغرافية الكون، ولن يمجد التاريخ أشعاره؛ كما فعل مع المتنبي وقصائده فى مدح سيف الدولة. المتنبي، كثيرا ما وُشى به وأبلغ عن حماقاته حين كتب شعره عن الفقراء والمظلومين، أو حين خدش بأظافره أسوار القصر كل مساء حتى تدمى يديه. وبقى القصر شامخا مهيبا لا يناله أذى بينما يمضى هوإلى منزله وسط سخرية الحرس. يبحث عمن يضمد جروحه التى لا تنتهي. وعرف الناس بنأيه عن مجالس النفاق وأمسيات المداهنين. ساحات القصر كل مساء تضم الشعراء الغاوين

والمهرجين والمشخصاتية، حيث يُكتب التاريخ فى حضرة سيف الدولة، وبأيدٍ تُخلد الكذب المنمق للأجيال القادمة، فى مجلدات فاخرة الطباعة تكتب بماء الذهب، لتصبح فى العهد القادم مخطوطات نادرة، وشيئا فشيئا، لفظته المدينة خارج أسوارها، كما لفظت أشعاره، تنصل منه الفقراء، حتى الفقراء!.. رآهم يتجولون حول أسوار القصر، بأسمالهم الباليه، طامعين في أن تنالهم نفحة من المنح الملكية. فلما يأس من اصلاحهم، حينها فقط حزم القليل من متاعه، وجلس على مقعد خشبي في محطة القطار، يتأمل القطارات التي تمر، ينتظر قطارا يذهب لمدينة لا تقر بسيف الدولة حاكما، ولا تعين المظلوم على ظلمه.

***

الزمن: إنه في العام الألف بعد الألف بعد بضع آلاف أخرى كان ينتظر على محطة قطار جديدة.. ومعه كتاب وديوان شعر لا يعنيان أحدًا.. ينتظر قطارا لا يجئ.. لمدينة ليست على خارطة هذا العالم.

قرار متسرع

ماله عقلي يصر أن يرى الانفصال أمرا محتومًا وقضية منتهية لا يجوز الطعن فيها وكل شئ بيننا يقودنا نحو النهاية. قلبي لم يزل يسكن لديه، يأبى الانسحاب، يعيش تفاصيله، يراه في فنجان القهوة الصباحية الذي يذكرني بلون عينيه البنيتين. رائحة تبغ أبي تشعل سيجارته في فمي. إنعكاس الصور على صفحة الماء يرسم ذكريات تجمعنا، ورنة هاتفي المحمول هي أغنية مفضلة لذائقته لا ذائقتي. لماذا نتيجة الحائط لا تعني لي سوى جدوله الأسبوعي؟ لماذا يتوقف الزمن على الأشهر القليلة التي عرفته فيها، فأحسبها عمرا كاملا بحجم أيامى التى سبقت تعارفنا؟ كان قراري سكيناً ذبحني قبل أن يذبحه.

رغم كل أسلحة القلب، فليس لي أن أنتصر لقلبي. أتجاهل كل الوعود الوردية، أغمض عينى، أراه بعد زواجنا يضيق ببكاء طفلي ومطالبه. طفلي أنا وليس طفله، وهو المُطلّق الذي لم

يستطع تحمل مسئولية طفلته، وألقى عن كاهليه عبء تربيتها، تاركا إياها لوالدتها التى طلّقها منذ سنتين. أتخيل أسباب طلاقهما، سهولة تنازله عن ابنته، وأرى فيه شخصا غير مسئول، لا يرى في الحياة سوى الترفيه والمرح. لو تزوجنا، فمن إذًا سيحمل طفلي إلى المستشفى في منتصف الليل حين يشكوالحمى، أويهرع إلى مدرسته إذا طرأ خطبٌ ما؟

أنا لم أعرف معنى للحب إلا معه. لأول مرة أشعر بذلك الإحساس.. كيف يدق القلب شوقا وفرحا لرؤية أحدهم.. وكيف يصير الكون أحلى حين أراه.. كيف يمر الوقت سريعا كحلم حين نكون معا. ساعدني يا الله، امنعْ صوته الذي يدوي في أذنيّ طوال اليوم.. انزعْ من يومي تفاصيله.. اجعلنى لا أتابع يومه من مكاني أمام ساعة الحائط، وأتخيله في عمله حتى الخامسة، أتخيله حين يغادر المكتب، السادسة، هوا لآن في المنزل يتناول غذاءه، مساء الخميس يجلس على المقهى مع أصدقائه، يفكر بي كما أفكر به. ماذا على أن أفعل؟ هل أكمل مشوار الزواج وأنتصر لقلبي؟

يقطع أفكاري صوتُ طفلي الذي يستيقظ فزعاً. أهرع إلى غرفته فأراه يبكي ويتصبب عرقاً

- ماذا حدث؟

رد من بين دموعِه وشهقاتِه: حلمت بك تبكين، حتى إنك لم تشعري بي وأنا أناديكِ.. لقد خفت جدا يا أمي!

احتضنته بشدّة: لن أبكي أبدا يا حبيبي.لا تخف، ماما لن يأخذها الحزن منك أبدًا.

حسمت أمري، وربتُّ على طفلي الجميل في فراشه، حتى نام وعلى وجهه ابتسامة. خرجت إلى الصالة، وقد أمسكت بهاتفي أخرِج رقمه.

العريس

لا تعرف كيف تسرب الخبر بهذه السرعة. ربما بسبب طبيعة ذلك الحي الشعبي الذي تسكنه.. تلك الحارة الضيقة، التي يكاد كل بيت فيها يحتضن الآخر، تمتد مناشر الغسيل المتقابلة حيث يمكن للجارة في الشقة المقابلة إن مدت ذراعها قليلا أن تنشر على أحبال جارتها، لتتصاعد المشاجرات في شكل وصلات من الردح المنغم، في طقس شبه يومي، حيث تضيق البيوت على ساكنيها، فيفرجون عن ضيقهم بهذه المشاحنات، مثل طنجرة الضغط التي تسرب قليلا من البخار كيلا تنفجر.

لا يسع أحد في هذه الحارة الضيقة أن يخفي شيئا ما. لم يكن بوسع أسرة ناهد إخفاء حضور العريس مرتديا بذلة وحاملا علبة الجاتوه، ومعه والدته وأخته، تطل من خلفهم عشرات العيون والأسئلة.

تلوكها الألسن. تعرف هي ذلك. تكاد تسمع بأذنيها ما يدور خلف كل جدار في هذه الحارة. تخطت الثلاثين ببضعة أعوام، تدرك أنها ليست جميلة بالقدر الذي يسمح لها بالتعالي ووضع الاشتراطات، لكنها تريد أن تضمن زواجا سعيدا. هي لم تعد تخشى شبح العنوسة وقد أطبق على روحها فعليا منذ سنوات. أصبحت كلمة آنسة تلسعها كضربات سوط، ولقب "مدام" حين ينطقه أحدهم بالخطأ يشعرها بغصة في الحلق ومرارة لا تنسى، خاصة حين ينبه أحدهم الشخص المخطئ، وما يصحب ذلك التنبيه من غمز ولمز وسخرية مكتومة وأحيانا معلنة.

إذن هذا العريس الموعود يفترض به أن يكون طوق النجاة الذي يلقيه إليها أحدهم في وسط مستنقع من الطين.

أفاقت من شرودها على صوت أمها: والدة العريس اتصلت وقالت انهم هييجوا الأسبوع الجاي عشان نقرا الفاتحة

استشاطت غضبا وهي تسأل أمها: هوا انا لسه قلت رأيي ولا حد سألني إذا كنت موافقه أو لأ؟!

نظرت أمها إليها في استنكار، ولوت شفتيها، وغادرت الغرفة

وفي المكتب، أفضت لزميلتها بما يثقلها، فقبَّلتها قائلة: ألف مبروك. واتسعت عينا ناهد في ذهول حين قرصتها في ركبتها قائلة: "عشان احصلك في جمعتك"، لينتشر الخبر في الشركة كانتشار النار في الهشيم، وتتراوح التهاني ما بين ربنا يتمم بخير، و"أيوه بقى خلينا نخلص منك".

وسط ذهولها، وجدت أنها لم تشعر بتلك السياط التي تلسع جسدها حين ناداها أحدهم "آنسه ناهد". أجبرت نفسها على الابتسام، بينما سرح خيالها بعيدا في زفة وفستان أبيض وجمع من البشر السعداء.

لم تغضب حين خاطبها سائق الميكروباص قائلا: "الأجرة يا مدام"، فهي على وشك أن تصير كذلك، بهذا العريس/ الفرصة. شعرت فجأة أن الأمر ليس سيئا تماما، فهي بالفعل تريد لبعض الفرحة أن تتسلل لحياتها الكئيبة.

تتذكر تلك الأيام وهي تلوك خيبتها مع فنجان القهوة، وحديث الجارات عن غدر الأزواج. تأخذ منها جارتها رتيبة الفنجان وتقلبه. تقرأ لها حظها الذي تعرفه ناهد جيدا، وتعرف رتيبه

عنها تفاصيلها التي تقرأها في الفنجان: فيه واحدة طويلة واقفة معاه وبتشده من إيده وهوواقف هناك اهو ومعاه شنطة كبيرة ومديها ضهره. صدقيني هيرجعلك وبكره تقولي رتيبه قالت.

تبتسم ابتسامة باهتة، وتسرح بخيالها.. ليست تلك الطويلة الممشوقة هي أول نزواته ولن تكون آخرها. عرفت كيف ترتب أمور بيتها وترعى طفليها، لكنه هو بقي فرس بلا لجام. ربما لم تكن تمتلك من أسلحة الأنوثة ما يؤهلها لخوض تلك الحروب. تتنهد، وتترك رتيبة مع فنجان القهوة، وتذهب لتطمئن على طفليها، لتجدهما يستذكران دروسهما، فتنزل السكينة على قلبها، وتدخل لتتمدد في سريرها البارد.

في الصباح، تركب الميكروباص ذاهبة إلى العمل. يحدثها السائق: الأجرة من النهارده 2 جنيه يا مدام.. ترن في أذنها كلمة "مدام" فيشرق وجهها.. على أي حال وجدت لزوجها فائدة.

نصف هزيمة ونصف انتصار

"اشتراها بقصيدة والكثير من الوعود.. لكنه في عام الجوع باع كل متاعه مبتدئا بها. قايضها بقنينة خمر، كي ينسى كونه شاعرًا مغمورًا "

***

لم تتوقف دموعها عن الانهمار كسيل يكتسح كل شئ في طريقه، مما أجبرني على الصمت احتراما لما تمر به، رغم وجود جزء مني يرفض ما يجري، إلا أني لم أملك الجسارة للإعتراض. استمعت لها بينما تسرد فصلا جديدا من معاناتها، تنتابني مشاعر مختلطة.. يتلاشى حاجز السنوات.. أراها جالسةً أمامي تسرد فصلاً جديدا في رواية تجلدني تفاصيلها، فأكرهها بدلا من أن أتعاطف معها. أتجرع الهزيمة في كل فصلٍ تحكيه. أمقت تلك النظرة في عينيها، خليط من الانهزام

والحزن والتوسل. تواجهني بعينيها بحثا عن بعض التعاطف، فأشيح بوجهي حتى لا يجلدني انهزامها، فيزداد جرحي اتساعاً. يصلني بكاؤها عبر الجدران، عبر الزمن.. حتى بعد موتها تحل روحها في أخريات، تبعث بهن إليّ لتعاقبني، ربما لأني لم أتعاطف معها كما أرادت.

أفيق على صوت الأخرى وهي تكشف عن ذراعها، رقبتها، أعلى صدرها، وتشهدني على آثار سجائره المطفأة بجسدها.. سجحات وكدمات ولسعات متفرقة تذكرني برواية معادة بتفاصيلها السوداء، أنظر في عينيها، لأجد نفس النظرة المتوسلة لبعض التعاطف، فأشيح بوجهي متظاهرة بكتابة بعض الملاحظات والتركيز في عملي، أسألها أسئلة روتينية، وأطلب منها ملء بعض البيانات. تنكسر النظرة في عينيها، وتزداد ذلا حين أتجاهلها. "خيبة جديدة لن تضر"، هكذا حدثتني نفسي، قبل أن تخطو خارج المكتب، استوقفتها قائلة: أواثقة أنت هذه المرة؟ ألن تغيري رأيك مع طلوع الصباح؟ لترد علي مؤكدة –ككل مرة– أنها مصممة على رفع دعوى الطلاق.

يأتيني صوته عبر الهاتف: متى تتعقلين وترجعين عن قرارك؟ يذكر كلاما عن البيت والأولاد، وعن لحظة غضب لن تتكرر. أتجاهل كلماته، وأنهي المكالمة ببرود. في كل مرة يجب أن ينتهي الأمر لصالحي، أنا التي لا تقبل الانهزام. إما أن يقبل الهزيمة أوينتهي وجودنا معا. أدرك أنه في كل مرة كان ينهزم لأجلي، ويقدِّر أبعاد مأساتي. حتى جاءت المرة حين لم ينحن للريح كعادته، فقررت إنهاء الأمر على طريقتي.

حين فعلها معي، أخرجت صورتها من درج الكومود في غرفة نومي، ووضعتها إلى جوار وجهي، وتأملتنا في المرآة. كانت عيناها تحمل عتابا، وانكسارا تأملته قليلا، قبل أن تنقلب ملامحي إلى الكثير من التحدي. تأملتها برهة أخرى، ودار بيننا حوار صامت، قبل أن أعيدها إلى مكانها، وأغلق عليها الدرج قائلة: لن أصبح أنتِ، لملمت ثيابه وأرغمته على المغادرة، مراهنة على وجود الأولاد ومدرستهم القريبة من البيت، وكان لي ما أردت، لم يتوقف الأطفال عن البكاء مذ غادر البيت. ولم تتوقف ضغوط الجميع يوما واحدا. وأنا متشبثة بموقفي كصخر لا يلين. كل يوم أتساءل هل أجد في

نفسي القوة كي أستمر منتصرة؟، أنشغل في قضية المرأة الأخرى، قبل أن تفاجئني بطلبها سحب الدعوى وتنازلها عن القضية، سألتها غاضبة:

-هل عدت إليه؟

-.....

كنت أكاد أن أجن وأنا أكيل لها الاتهامات، وأواصل هجومي عليها، بينما لاذت بالصمت حتى انتهيت.

سألتها:

-لماذا؟

-لأني أحب

-لكنه أهانك

- الحب مغفرة

-لن يتغير، وسيكررها مرارا

- إدع له بالهداية

-أيهزمك الحب؟

- بل تهزمني نظرة الحزن في عينيّ طفلتي

عدت إلى منزلي حانقةً جداً، فاستقبلتني نظرة الحزن في عيون أطفالي تحمل عتابا صامتا. دخلت إلى غرفتي.. أخرجت صورتها من درج الكومود، ونظرت إلى عينيها أستغيث، فقالت منتصرةً: ألم أقل لكِ!

المصيدة

دقت بكعبيها الأرض في ثقة، وهي تخطوإلى جواره ممشوقة القامة في اعتداد. سبقها ليفتح الباب الزجاجي مفسحا لها الطريق لتخطو قبله، في حركة مهذبة تليق بنبيل يبدو عليه الثراء. رغم فارق السن الواضح بينهما، أطل الهوى من مقلتيه، وهو يهمس لها ممسكا بكفها الرقيق بين راحتيه، كان المطر يهطل في الخارج، حين وضع صاحب المحل المجاور قطعة جبن فرنسي فاخر في المصيدة، قبل أن يغادر المكان في ابتسامة واثقة إنه الليلة سوف يسجل نصرا غير اعتيادي، حيث أحكم مصيدته جيدا. لن يفلت هذه المرة.

رغم حُسن وجهها الذي طلته بمساحيق التجميل التي أبرزت ملامحها.. عيناها الكحيلتان ورموشهما المطلية بالماسكارا يصنعان تناغما جميلا مع شعرها الأسود الفاحم. ملابسها المنتقاة بعناية فائقة تدل على أنها بذلت مجهودا كبيرا في

الإعداد لهذه المقابلة. بدا ذلك جليا من حقيبتها وحذائها الجديدين، ومن ملابسها التي أبرزت معالم أنوثتها بشكل واضح.. للمرة الثالثة يتركها ويخرج للرد على هاتفه المحمول. كانت تعبث في خصلات شعرها، وتهز إحدى ساقيها في عصبية واضحة، وتتلفت حولها في توتر.

هاتفه لا يتوقف عن مقاطعتهما طوال الأمسية، فيغادر المقهى كل مرة ليرد على اتصالات لا تنقطع. أزاحت خصلة شعر نافرة وهي تفكر.. تعرف جيدا أنها لعبة لن تستغرق الكثير من الوقت ليخدع كل منهما الآخر. فليحصل هو على ما يريده، وليمنحها ما تريد." لن يفلت هذه المرة"، قالتها كقطة أنشبت مخالبها للظفر بفريسة، وعيناها تلمعان في تحد. لن تقبل بأقل من شقة بحي راق ملكية خالصة لها، كثمن يعوضها عن فارق السن.

شم الفأر رائحة الجبن الفرنسي.. ملأت روحه، وداعبت أحاسيسه الجائعة. ولكنه حين اقترب ورأى المصيدة أدرك

الخدعة. كم هم سذج أولئك البشر حين يظنون أنهم أذكى من باقي المخلوقات

حينما عاد هذه المرة، جلس في مواجهتها. بدا أنها فقدت الكثير من تأثيرها عليه.هل خرج ليقرأ تميمة مضادة للعنة سحرها؟! زاد توترها، وافتعلت الأحاديث والابتسامات في محاولة منها لاستعادته. لكنه كان يلعب دور الفريسة، بينما ينصب شباكه حولها، تاركا إياها تظن بأنها تصطاده.

تناول مشروبه بينما يراقب توترها، وقد عرف أنه سيحصل على ما يريده. لكن ليس بالثمن الذي تقدِّره هي. اعتاد –كونه تاجرًا– أن يعرف متى يبيع ومتى يشتري. ستظن الآن أنه فقد اهتمامه بها، وستلهث وراءه. لن تشترط الكثير.. زواجا عرفيا ربما، أو لا زواج. جميلة هي في عينه؛ لكنها رخيصة قد ترضى ببعض القطع الذهبية، وهو لن ينفق أكثر من ذلك.

يعرف عن نفسه أنه سيفقد اهتمامه بها بعد شهر أو أكثر أو أقل، تبعا لقوة تأثيرها ومزاجه المتقلب. هي الآن تحت سيطرته تماما، قطع حديثها وثرثرتها بشكل مفاجئ، حين نهض ووضع

مبلغا من المال على الطاولة، وانصرف بخطوات مسرعة، وهو يشير لها أن تتبعه، دون أن يحاول النظر خلفه، بينما هي تهرول محاولة اللحاق به مع قرقعة كعبيها على الأرض

في الصباح، كان الجو أكثر صفوا، حين عاد صاحب المحل، فهرع إلى مكان المصيدة في شغف الواثق، ليجدها فارغة، بلا جبن ولا فئران!

الدمية

كانت الصغيرة في حالة مزاجية سيئة، وقد حاول الوالدان التسرية عنها بشتى الطرق دون فائدة. رغم الفيللا الفخمة، بحديقتها الرائعة التي حفت بأنواع الزهور النادرة من كل مكان، والركن المخصص للألعاب الذي صمم لأجلها، والذي يطل على حوض السباحة الأوليمبي، وطاقم الخدم والمربية الإنجليزية التي تتقاضى راتبها باليورو، إلا أن كل ذلك لم يفلح في إخراجها من حالة البؤس والاكتئاب التي تعانيها تلك الصغيرة المدللة، منذ فترة ليست بالقصيرة. لم ييأس الأب، الذي أوكل زوجته للمرة العاشرة هذا الأسبوع بزيارة أكبر متاجر الألعاب في البلدة. ولكن لا شئ يحوز إعجابها بالمرة.. ملت من كل الدمى واللعب الالكترونية.. زهدت في الخروج والسفر.. لم يعد شئ يثير حماستها. حزنت والدتها، التي لم تستطع التسرية عن صغيرتها.

كل هذه الأموال لا تستطيع إسعادها. كان ذلك موضوع الحديث بين الأم وإحدى صديقاتها في جلسة النادي الصباحية، حين أخبرتها الصديقة عن لعبة جديدة طرحت مؤخرا بالأسواق الأوروبية، وبدأت في الانتشار بين أطفال الطبقة الراقية. استمرت صديقتها في شرح الأمر لها: تسمى جينبتس، وهي مزيج من لعبة وكائن حي، أو فلنقل إنها بمثابة حيوان أليف معدل وراثيا. اللعبة على شكل رضيع قلبه ينبض بالحياة، شكله أقرب للحقيقة.. جلد بشري، وملامح إنسان حقيقية، يبكي ويشعر بالألم، يظل حيا لمدة عام، وهناك أنواع أخرى تموت بعد عامين.

بدت الفكرة غريبة ومثيرة بالنسبة للأم، التي تملكها الفضول والرغبة في التفاخر على صديقاتها بشراء ألعاب ابنتها من أوروبا. تخيلت صورة لابنتها مع دميتها الجديدة على صفحات التواصل الاجتماعي. سيكون ذلك كفيلا بإشعال نيران الغيرة في قلوب صديقات النادي، لتخطف الأضواء من غريمتها الحسناء غادة لاشين، بعد أن سحبت البساط من تحت أقدامها

بشرائها مجموعة تحف ولوحات فنية موقعة من فنان معروف من باريس.

هناك في الحي الفقير، كانت هناك امرأة أخرى تصرخ وتولول منادية على ابنها الذي فقدته منذ قليل، بينما يضرب أحدهم كفا بكف ويتبادلون الهمسات بشأن عدد الأطفال المفقودين، والذين يعثر على جثثهم بعد أيام عند مقلب النفايات وقد سرقت أعضائهم، وعن عدد البلاغات المقدمة في شأن الأطفال المفقودين وعصابات سرقة الأعضاء، التي لا تجد من يتصدى لها من المسئولين، وكأن أجساد الفقراء بلا ثمن. ربما ترى الحكومة أنه إذا نقص عدد الفقراء نقصت مشاكلهم وأعباءهم التي قصمت ظهر الوطن.

كانت المرأة تجلس على الرصيف، رافضة العودة من دون طفلها.، كلت قدماها من السعي في أرجاء الحي والشوارع المحيطة، فجلست تبكي بعد أن بح صوتها من الصراخ طيلة نهار كامل. يطوف بذهنها صورة الطفل الذي وجدوه في الأسبوع الماضي جثة ملقاة في مكب النفايات، منزوع العينين

ومكان القلب، وربما أيضا بعض الأعضاء الداخلية الأخرى. كان المنظر مفجعا، كلما تذكرته عادت إلى ولولتها. بدأ الناس ينفضون كل إلى حال سبيله، يحوقلون ويضربون كفا بكف، بعدأن أشاروا عليها بالذهاب إلى النقطة وعمل محضر بفقد الطفل، بعد مرور أربعة وعشرين ساعة.

في غضون أيام قلائل، وصلت الدمية المعدلة وراثيا إلى المنزل، بعد أن دفع الأهل فيها مبلغا يكفي لشراء سيارة حديثة. لم تطق الصغيرة صبرا لتفتح العلبة وترى دميتها الجديدة.. تتحسسها في وجل.. كانت كرضيع، جسده دافئ، بشرته ناعمة حقيقية، وله شعر ناعم. كان طبق الأصل من طفل رضيع حقيقي، حتى أن قلبه كان ينبض. وكان معه في الصندوق غذاء مخصوص له، يتم إطعامه به عن طريق انبوب تغذية. شعرت الأم بالقلق والقشعريرة وهي تتحسس هذا الجسد الدافئ المفعم بالحياة، وتوترت أكثر حين شعرت بنبضات قلبه البشري. لكن زوجها دفع مبلغا كبيرا بالفعل، كما أن الصغيرة يبدو عليها الفرح الشديد.

كانت الدمية تسلية عظيمة للصغيرة بالفعل، أخرجتها من حالة الملل، وأشبعت غريزة الأمومة التي توجد بالفتيات الصغار، والتي لم يفسدها الثراء الفاحش والتدليل الزائد. كانت تطعمه، وتضعه مساءً بالعلبة البلاستيكية موصلة بالشاحن، لضمان بقاء القلب حيا، وتضعه في مهد صغير مخصص للرضع بجوار فراشها الوثير.أصبحت العناية به شغلها الشاغل، والطفل هوأنيسها الجديد، وعادت اللمعة في عينيها ثانية.

بعد أيام قلائل، كان الحي قد استيقظ على ولولة امرأة وجدت جثة طفلها المفقود، منزوع الأعضاء كسابقيه. حضرت الشرطة والإسعاف، وتجمهر الناس قليلا، ثم انفض الجمع وراح كل إلى حال سبيله

***

في مؤتمر يعج بالصحفيين، وقف مسئول التسويق في الشركة الأوروبية يتحدث بحماس شديد عن الجيل الجديد من الألعاب المسمى (جنبتس)، اللعبة المستنسخة من جينات بشرية وحيوانية، ومعدلة وراثيا. أجاب عن العديد من الأسئلة بشأن

تقنية اللعبة وارتفاع سعرها وشكلها الذي يشبه طفلا بشريا. ولكنه راوغ حين سأله أحدهم عن قلبها الذي ينبض، وماهية هذا القلب، هل هوبشري أم حيواني.

خاف الادعاء بأنه قلب حيوان صغير، حتى لا يتعرض لمقاضاة جمعيات الرفق بالحيوان الأوروبية، وقوانينها التي لا ترحم.

اهداء خاص

إلى روح والدتي: "تمنيت كثيرا أن تكوني هنا الآن، كل فرح من دونك منقوص"

إلى والدي و صديقي و رَجُلي الأول: دمت لي سندًا

إلى زوجي و حبيبي و رفيق الدرب، شكرًا لأنك معي دائما

إلى ولديّ: عُمَرْ وعبد الرحمن حبات قلبي و النور الذي أعيش لأجله: لا تجعلا الحياة تسرق أحلامكما

إلى شقيقاتي دعاء و شيماء أجمل منح الحياة،أحبكما كثيرا

شكر و اهداء

شكر خاص للصديقة إيمان الدواخلي لمحبتها الخالصة أولا، ولدعمها و نصائحها القيمة حتى خرج هذا العمل إلى النور

شكر خاص للكاتب و الناقد الأستاذ/ محمد علي إبراهيم لدوره في خروج هذه المجموعة القصصية للنور

وشكر خاصل للفنان المحترم الأستاذ/ محمد صلاح صاحب دار الدار للنشر و التوزيع لثقته و دعمه

و أخيرا كل الشكر لأصدقائي أعضاء جروب المناقشة، و لقاء حول كتاب، وورشة السرد و على رأسهم عبد الرحمن الباز، أحمد عويضه لآرائهم القيمة.